البِشَـــــارة

(أيام الإمام)

عاطف عبدالرحمن

obeikan.com

الكتـــــــاب: **البشارة - أيام الإمام**

المــــؤلـــــف: **عاطف عبدالرحمن**

تصميم الغـــلاف: **أ/ أحمد الصباغ**

المراجعة اللغوية: **أ/ أشرف البولاقي**

رقـــم الإيـــداع: 14941 / 2015

الترقيــم الدولــي: 1 - 029 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 **ش التحرير، الدور** 18، **أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة**

هاتف: 0237621688 - **موبايل:** 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

البِشَـــــارة

(أيام الإمام)

عاطف عبدالرحمن

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء

إلى روح البراءة.. وقلب النقاء..

القديس الذي بشر « بأفول زمن الكتبة.. وقدوم زمن الكتابة «

القاص والمترجم / محمد إبراهيم مبروك..

أهديك بعضًا.. مني عله يكفر عن كثير من ذنوبنا.

obeikan.com

obeikan.com

إليكِ ..

فحينَ اشتدتِ الأزمةُ،

وعمَّتِ الظلمةُ،

تَفَتَّحتْ عيناك شلالاً

مِن البراءةِ .. والحنان

والنقاءِ .. والعطاء

والطهارةِ .. والحُب

باعثةً في نَفسي الأملَ

ناشرةً في الكونِ الضياء

obeikan.com

obeikan.com

(١)

اليومَ .. ذِكرَى وفاة والدي الأولى، لم أَكُنْ قد حضرتُ الوفاةَ أو الجنازةَ، ولا أذكُرُ ملامحَ وجهِ أبي، لم أرَه منذ خمسةَ عشرَ عامًا حين أَرسَلني إلى فرنسا للدراسة، كان ما بينَه وبيني خلالَها بضعةُ مكالماتٍ هاتفيةٍ مقتضَبة .. وحوالةٌ بريديةٌ تحمِلُ ليَ النقودَ في أولِ كلِّ شهر، لم أَجِد أيَّ سببٍ يدعوني لحضورِ هذه الذكرَى لكِنَّ إصرارَ شقيقي الوحيدِ كان دافعًا لي للحضور..

عرَفتُ أنَّ وصيةَ أبي سوف تُفتَحُ في هذا اليوم، كانت هذه رغبتَه، وكانت الغيومُ التي تغلِّف سماءَ الإسكندريةِ في هذا الصباح باعثةً على شعورٍ داخلي بالانقباضِ أَخذَ يخايلُني منذ أن خَطَتْ قدماي أولَى الخطواتِ في هذه المدينة. شعرتُ بأن والدي يعاقِبُني لسببٍ ما عقابًا كنتُ أنتظِرُه منه لسنواتٍ طوالٍ

وفُتِحَت الوصية .... وقَرَأ المحامي ما بها، كنتُ أعلمُ أنه اختصَّني ببعضِ الأمـوال، هذه عادتُه، يَحجُبُ الحُبَّ ويُحِبُّ المَنحَ، لكنه اختصَّني في وصيتِه بأجندةٍ حمراءَ مغلَقةٍ ومغلَّفة، فتحتُ الأجندةَ وبدأتُ أُطالِعُ ما فيها.

obeikan.com

(٢)

طـوالَ الطريقِ مِـن العتبة إلـى الإمـام وهـو يجلسُ بجواري في الأتوبيس لا يُحرِّكُ ساكنًا ..لا يتحدث .. فقط يحدِّقُ إلى الأمام، كنتُ قد تعرفتُ عليه لتوّي فوْرَ نزولى إلى مدينةِ الفوضى والأحـلام .. القاهرة، في محطة رمسيس اصطدمتُ به شأنَ المئات، ولكنه توقَّفَ ليعتذر، كان هذا سلوكًا غريبًا لم يحدثْ معي في زياراتي السابقة إلى القاهرة، ولكن هذه المَرةَ لم يكن الهدفُ هو الزيارة، بل البحث عن مكانٍ للإقامة بعد ان انتقل عملى أو لنقُلْ نُقِلتُ إلى هذه المدينة، كان سلوكُه ومبادرتُه بالاعتذار دافعًا لي كي أسألَه عن إمكانيةِ مساعدتى فى البحث عن سكن، لم يرُد ولكنه نظَرَ إليَّ نظرةً فاحصةً لم تستغرقْ سِوى ثوانٍ معدودةٍ، عرَفَ منها ما أبحثُ عنه تحديدا وأشار بإصبعِه أن أسيرَ خلفَه، وبالفعل سِرنا

مسافةً طويلةً جدًا من رمسيس إلى العتبة، ولم أَدرِ ماذا كان سبب عدم ركوبنا مباشرةً إلى هدفنا .. قلتُ فى نفسي ربما كان يبحث عن شيءٍ أو عن شخص، وواصلتُ السيرَ خلفَه، توقَّفَ الأتوبيس فإذا به هو أيضًا يقِفُ ويشير إليَّ بيدِه، فهمتُ أننا وصلنا فترجلتُ خلفَه.

عند هبوطي من الأتوبيس أدركتُ أن هذه هى المحطة الأخيرة، نظَرَ إلـيَّ نظرةً عابرةً ثم دَخل أحدَ الشوارعِ المؤدية إلـى حي الإمـام الشافعى، سرتُ وراءَه وأنـا أحـاولُ اللحاقَ بـه، كـان كل شيءٍ فيه يدفعنى إلى التساؤل، طريقة سيرِه، ملابسه، نظراته، شَعره المهوش، الكوفيه الحمراء التى تتدلَّى من عنقِه مذيَّلةً بعَلَم فلسطين .. لكننى لم أجرؤْ على السؤال، كنتُ أكتفى فقط بملاحقتِه وعندما عبَرَ آخرَ المنازلِ ودخلَ إلى طريقٍ تُرَابي جانبي هالني ما رأيتُ، نحن داخلانِ مباشرةً إلى المدافن. حاولتُ أن أوقِفَه، أن أفهمَ منه .. لكنه انتحَى بأحد الجالسين على المقهى جانبًا وتحدَّثَ إليه بكلماتٍ قليلة، نظَرَ الرجُلُ الآخرُ ناحيتى ثم وضعَ يدَه فى جيبِه وأَخرجَ مفتاحًا أعطاه لصاحبِنا الذى تابعَ سيرَه وأنا لا أدري ماذا أفعل.. لحظة وسارعتُ السيرَ خلفَه ..

ظللتُ طوالَ الطريق أردِّد دعاءَ الدخولِ إلى المقابر، وأختلِسُ

النظرَ إلى أعلى، والطريق غير المستوية تكاد تُسقِطُني بعد أن هدَّني التعبُ مِن كثرة المسير، حاولتُ أن أبدوَ متماسكًا على الرغم مِن كل شيء، وأخذتُ أتاملُ أبوابَ المقابر على الجانبيْنِ، المغلقةَ على مَن فيها مِن أموات، لحظات وارتفَعَ صوتُ موسيقى من مذياع، نظرَ صاحبى ناحيةَ البابِ المفتوح ورفَعَ يدَه بالتحية وتابَعَ سيرَه، ما إنْ وصلتُ إلى البابِ المفتوح حتى وجدتُ خلفَه امرأةً جالسةً على طشت غسيل وإلى جوارِها صفيحة تغلي بها الملابسَ فوق وابور جاز، وهى تمارس عملَها بكل دأبٍ واجتهاد، فيما ساقاها مكشوفتانِ حتى الملابس الداخلية.. توقفتُ لأدقِّقَ النظرَ فيما أرى فرفعتْ عينَيها ناحيتي ومسحتْ عرقَ جبينِها براحةِ يدِها، وعادت إلى عملِها غيرَ مباليةٍ. ارتبكتُ للحظةٍ ووجهتُ نظري ناحيةَ صاحبي فوجدتُه على مسافةٍ بعيدة، جاهدتُ حتى أصل إليه وكنتُ بين لحظةٍ وأخرى أرى بعضَ الأبوابِ مفتوحةً، ولكننى لم أتبينْ ماذا كان يحدث خلفَ هذه الأبواب، وهل كانت هناك سيقانٌ واضحةٌ للعيانِ أم لا، كان تركيزى فى هذه اللحظة أن أصل إلى صاحبى قبْلَ أن ينزوي فى طريق لا أعرف الوصولَ إليه، وما إنْ واصلتُ لهاثي خلفَه وأنفاسي تضطربُ وقلبي يدقُّ بشدةٍ حتى وجدتُه يقِف أمام أحد الأبواب وأشار إليَّ

بيدِه أنِ ادْخُلْ .. دخلتُ خلفَه فإذا بِنا فى ساحةٍ كبيرةٍ بها العديد من الأبواب المغلَقة. اتَّجَه إلى أولِ الأبوابِ وطَرَقَه

- يا أُم آمال .. هاتي شمعة، معايا ساكن لأوضة أُم صلاح ..

فُتِحَ البابُ وأَخرجتْ منه يدٌ لم أتبينْ وجهَ صاحبتِها شمعةً وعلبةَ كبريت، وأُغلِقَ البابُ ثانية، أضاءَ الشمعةَ فوجدنا طريقَنا إلى السلّم ـ صعدَ وصعدتُ خلفَه ووقفَ أمام الباب الذى فى المنتصف، وضعَ المفتاحَ فى الباب وفتَحَه ثم أشار لى بالدخول، تقدمتُ قليلاً وأنا لا أعرفُ ماذا أقول .. كان التعبُ قد تَمَلَّكَ مِن كل أجزاء جسدى. أمسكتُ الشمعةَ وأنرتُ له الطريقَ لكى ينزل السلالم ..

- أنا اتفقت لك مع صاحب الأوضه.. الإيجار هيبقى ياخده آخر الشهر، وكل شهر بشهره، نام دلوقت وأنا ها ابقى أعدّى عليك بُكره إن شاء الله بعد ما ترجع من الشغل..

وما إنْ وصلَ الى الباب الخارجى حتى التفتَ ناحيتى ثانيةً ..

- على فكرة لو لقيت أي حاجه على السرير.. عادي.. أصل خالتك أُم صلاح لسّه ميتة النهارده، فوضِّب أي حاجه كده ونام لغاية الصبح ..

وأغلَقَ البابَ خلفَه بصوتٍ عنيف ارتجفتْ له كل عضلةٍ فى جسدى، لم أَدرِ ماذا أفعل، هل أُغلِقُ البابَ وأَنزل جريًا إلى الشارع؟! هل أَدخلُ الغرفةَ التى لا أعرف ما فيها؟ هل أقِفُ هكذا حتى الصباح؟ والتفتُّ ناحيةَ الغرفةِ فأضاءَتها الشمعةُ، تشجعتُ ودخلتُ .. وجدتُ فى المواجهة سريرًا عليه مَرتَبةٌ ولحاف وأكوامٌ من الملابس الرثة، إلى أحد الجوانبِ شماعة تحتها وابور جاز وبعض الأوانى المنزلية، وإلى جوارِ الباب كرسي وحيد وعليه سجادة صلاة، بحثتُ عن مكانٍ وضعتُ فيه الشمعة، وتقدمتُ بحذرٍ مِن السرير وجذبتُ اللحافَ وفَرَشتُه على الأرض إلى جوار باب الحجرة، ووضعتُ حقيبتي مكانَ المَخدة وجذبتُ سجادةَ الصلاةِ ووضعتُها فوق اللحاف، واستلقيتُ كما أنا بكامل ملابسى .. نظرتُ أمامى كان هناك شُبَّاكٌ يَدخلُ مِنه ضوءُ القمرِ ليغطيَ السريرَ والغرفةَ بكاملِها، وبفعْلِ هواءٍ لا أدرى مصدرَه انطفأتِ الشمعة، وظَلَّ ضوءُ القمرِ ملازِمًا لى فى غرفتى .. لا أدرى ماذا حدثَ بعد ذلك .. يبدو أننى قد دخلتُ فى غيبوبةٍ مِن التعب، أو أن النعاسَ قد غَلَبني.

استيقظتُ على صوت طرقاتٍ عنيفةٍ على الباب، حاولتُ أن أفتحَ عينيَّ لكنني لم أتمكن من شدة الإضاءة فى الغرفة، تمالكتُ نفْسي

حتى وقفتُ وأزحتُ اللحافَ بعيدًا عن الباب، وفتحتُ البابَ، وجدتُ صاحبى واقفًا بكامل أناقتِه التى كان عليها البارحة، نظرَ إليَّ مندهِشًا ثم دَخل إلى الغرفة..

- إيه ده؟ ... ده انت راحت عليك نومه بقى ..

لم أدرِ ماذا أفعل .. سألته:

- هوه احنا امتى؟!

-امتى؟! الساعة أربعة العصر، يعنى انت لا رحت الشغل ولا عملت أى حاجة، قوم .. قوم اغسل وشّك وتعالَ معايا ..

نظرتُ حولى فى دهشة، لم يكن هناك أى وجودٍ لحمَّام أو حنفية أو أي وسيلة لغسيل الوجه فى الغرفة، وحين أَدرَك دهشتى.. ضحك

- الحمَّام برّه، كل الأوَض اللى فى الدور الفوقانى بتستخدمه، بس انت بقى حظك .. الحمّام جنب باب الأوضه ..

اتَّجهتُ الى الحقيبة وأخرجتُ منها فوطة وعِدة حلاقة وفرشاةَ أسنان، وتوجهتُ إلى حيث أشار ناحيةَ الحمَّام بينما كان هو يشعِلُ وابور الجاز وهو يقول:

- ها اعمل لنا كُبايتين شاي على بال ما تجهز نفسك .

اتَّجهتُ إلى باب الحمَّام وحاولتُ فتْحَه فوجدتُه مغلَقاً من الداخل، طرقتُ البابَ فسمعتُ صوتًا مِن الداخل:

- اصبر... هيه يعنى القيامة قامت؟

كان الصوتُ لامرأةٍ فازداد حَرَجى، لحظات وفُتِحَ البابُ وخرجتْ منه امرأةٌ بملابسها الداخلية؛ فقدْ كانت تأخذ دُشّا فى الداخل وما زال الماءُ يتساقط من شَعرِها، حاولتُ أن أُبعِدَ ناظري عنها خَجلا لكنها فاجأتنى :

- اتفضل .. أنا عارفه البلاوى دى بتتحدف علينا منين؟!

رفعتُ وجهي ناظراً ناحيتَها محاوِلا الدفاعَ عن نفسى، ولكننى لمَّا رأيتُ حجمَ أردافِها الكبيرةِ وهى تهتز فى خُيَلاء أحجمتُ عن الدفاع عن نفسى ودخلتُ الحمَّامَ خشيةَ حدوثِ ما لا تُحمَد عُقبَاه.

بعدَ أن انتهينا من تناول الشاي أخذنى مِن يدى وقد غيَّرتُ ملابسى وأَغلَق باب الحجرة، نزلنا السلَّمَ وقبلَ أن نخرج من الباب الرئيسى وجدنا سيدةً فى أواسط الثلاثينات تجلس أمام أحد الأبواب وهى تشرب سيجارةً وفنجانَ قهوةٍ بمنتهى التلذذ، نظر إليها صاحبى

بإكبارٍ ثم قدَّمنى إليها :

- أُم آمال .. الساكن الجديد اللى أخد أوضة أُم صلاح ..

رفعتِ السيدةُ رأسَها ناحيتى، كانت نظراتُها الحادةُ والحانيةُ فى نفس الوقت عاملا جعلنى أُخفِض بصرى ولا أنظر اليها، عاودتْ شُربَ القهوةِ وأنا أنظر إليها من طرفٍ خفي ..لكنها بغريزةٍ لا تُخطىء واجهتنى بنظراتِها وأنا أنظر ناحيتَها ..

- والأستاذ منين؟!

ارتبكتُ ولم أَدرِ ماذا أقول، ثم تشجعت :

- اسمي سعيد .. سعيد سالم من المنصورة، واتنقلت هنا، قصدي الشغل يعنى، وزي ما انتى عارفه أزمة مساكن ..

- عايش لوحدك؟

- آه أصل .. أصل أنا يا دوب متعيِّن جديد، يعنى لا جواز ولا أى حاجه يا دوب على قد الشغلانه ..

شَعرَ صاحبى بحرجِ موقفى فحاولَ أن يتدخل لينقذنى مِن سطوةِ أُم آمال وسيطرتِها

obeikan.com

- وأهوه البَرَكه فيكى بقى يا أم آمال..

نظرتْ إليَّ نظرةً لم أستطع تحديدَ معناها فى ذلك الوقت وقالت:

- أمّا نشوف .. ابقى سيب مفتاح الأوضه .. وانا ها أوضبهالك لغاية لمّا تيجى

حاولتُ التعللَ بالرفض لأي سبب ولكن صاحبى كان أسرعَ منِّي. أعطاها المفتاحَ الذى أخذَتْه ووضعتْه مِن فتحة الجلبابِ فى صدرِها وعادت إلى سجائرها وقهوتِها .

جذَبَني صاحبي مِن يدي وخرجنا، وأنا لا أعلم ماذا عليَّ أن أفعل، هذه أول مرةٍ سوف يطَّلِعُ فيها أحدٌ على أشيائى الخاصة، صحيح أنه ليس لديَّ مقتنياتٌ ثمنية أخاف عليها إلا أن كل ما أملكه كان داخلَ الحقيبة بما فيها مِن ملابسَ داخليةٍ متَّسِخة أو نظيفة، غمَرَنى الشعورُ بالخجل وأنا أُجاهِدُ كى ألحقَ بصاحبى الذى كعادته كان يسبِقُنى فى السير دائمًا، وعند الباب الذى كانت خلفَه السيدةُ تغسِلُ الملابسَ بالأمس رفعَ صاحبى يدَه بالتحية وواصلَ سيرَه ..

لا أعرفُ ما هى القوةُ التى دبَّتْ فى أوصالى فجأة وجاهدتُ فى السير حتى وصلتُ إلى الباب المفتوح، وتوقفتُ وأنا أتوقع أن أشاهدَ

بإمعانٍ ما لم أشاهده بالأمس، وما إنْ توقفتُ حتى وجدتُ أمامى إنساناً ضخماً واقفاً بملابسه الداخليةِ وبيدِه سيفٌ حديدي حقيقي وهو ينظر ناحيتى، لم أتمالكْ إلا أن أرفعَ يدي بالسلام وأعدو حتى وصلتُ إلى صاحبى الذى نظرَ إليَّ وأخذ يضحك وهو يدرك ما حدث لى، حاولتُ أن ألومَه لأنه لم يحذرْنى لكنه وسط الضحكِ قال:

- اللي كانت موجوده امبارح مراته، وده بقى المعلِّم عبد البر جوزها، وتلاقي دلوقت خناقه هتحصل بين التُّرَبِيّة، ما هو كل واحد بيقول ياللّه نفسى، والجدع اللي يحُط ايده على أكبر عدد من القبور، إنما انت حظك حلو، المقبره اللى انت فيها ماحدش حاطط إيده عليها علشان أصحابها لسّه عايشين، الأستاذ صلاح اللي قابلناه امبارح على «قهوه كتكوت»

وبدرتْ مِنِّي علاماتُ دهشةٍ وعدمِ فهْم. لم يهتم صاحبى بإفهامى وواصلَ سيرَه حتى وصلنا إلى المقهى وأشار إليه بطرفٍ خفي وكأنه يقول « هيه دي قهوه كتكوت « وواصل سيرَه حتى وصلنا إلى الأوتوبيس، وكعادته فى الأتوبيس لا ينطِق ولا يتحرك وإنما ينظر دائمًا إلى الأمام ، وحين هبطنا فى ميدان العتبة حاولتُ متابعتَه بكل الطُّرُقِ حتى لا يغيب عن عيني، حتى وصلنا إلى إحدى الحواري، كان

الجو يميل إلى البرودة؛ ولهذا عذرتُه فى هذه الكوفيةِ الحمراء التى بأسفلها عَلَمُ فلسطين، كنتُ أشعر أنه يتأنَّقُ بها ولكنه ربما أيضًا يحتمى من البرد، وقفَ أمام أحد الأبواب التى طَبعَ الزمنُ طابعَه عليها، والتى مِن الممكن أن تُشعِرَك بالبرودة والوحشة والغربة، حاولتُ الاستفسارَ منه، لكنه نظرَ إليَّ بكبرياء حقيقي وهو يقول :

– هنا دُنيتى، باحس إنى بنى آدم وسط أصحابى الحقيقيين..

وما إنْ فتحَ الباب حتى خرجتْ منه رائحةُ البيرةِ النفاذةُ ودخان السجائر، ودخلتُ خلفَه وأنا أُمَنِّي النفْسَ بلحظاتٍ من الهدوء والسكينة، كان جميع مَن فى الداخل يعرفونه وهو يتبادل معهم التحيةَ والابتسامَ حتى عثر لنا أخيراً على مكان جلسنا فيه، ووضِعتْ أمامَنا عدةُ زجاجاتِ بيره، وأخذ صاحبى يشرب ويدخن فى شراهةٍ وهو يتبادل مكانَه مع بعض الجالسين ويدور بينهم حوارٌ أحيانًا بصوت خفيض وأخرى بصوتٍ مرتفع وإنْ كنتُ لا أفهم فيمَ يتحدثون، بينما أنا ما زلتُ أشرب الكوبَ الأول الذى أفرغتُه لنفسى، وأخَذَ الجميعُ يتصايحون ويتناقشون، ويبدو أنه كان نِقَاشًا حادًا إلا أننى لم أستطع تمييزَ أى شيء فى هذا المكان سوى أنه ساحةٌ كبيرة مملوءةٌ بالكراسي والترابيزات وزجاجات البيرة والسجائر

مِن كل الأنواع، ونقاش لا يهدأ .. يبدأ مِن منضدةٍ ويمتد إلى أخرى، إلا أننى لاحظتُ أن الجميعَ هنا يضعون الكوفية التى تحمل عَلَمَ فلسطين وإنْ كانت بالضرورة ليست حمراءَ، عاد صاحبى ثانيةً إلى جانبى وأخذ يشرب مِن زجاجتى التى ما زالت ملأىَ نظرتُ إليه وسألتُه مباشرة :

- هوه انت اسمك ايه؟

نظرَ إليَّ بدهشةٍ وكأننى أسأله عن شىءٍ يبدو بديهيًا، وإذْ به يقف فجأةً ويطالب الجميعَ بالصمت، وعندما استجاب له جميعُ مَن فى القاعة نظَرَ إليَّ وقال لهم :

- صاحبى ده سعيد سالم .. مصرى، واحد من الناس الحقيقيين لكن تصوروا .. مش عارف أنا مين

وعندها تعالت الأصواتُ وتداخلتْ فى بعضها البعض وأخذ الصوت يعلو أحيانًا ويخفت أحيانًا أخرى وأنا لا أستطيع أن أحدِّدَ فيمَ كانوا يتحدثون، وجلس صاحبى إلى جواري وقال لى بصوتٍ خفيض:

- تصدَّق إنك أول واحد ما يعرفينش، أنا شاعر الشعب، صوري

ماليه الجرايد، وأشعارى كل الناس حافظاها، لكن انت أول واحد يقابلنى وما يعرفنيش..

علا صوتُ المتناقشين، وقام صاحبى وأخذ يتحدث مع بعضهم، وإذا بهم يندفعون خارجين وصاحبى على رأس الخارجين، لم أدرِ ماذا أفعل .. فخرجتُ خلفَهم، وإذا بِهم يسيرون فى اتجاه شارع «كلوت بك» الذى أوصلَهم إلى ميدان رمسيس، وهناك وجدتُ العشراتِ يتجمعون مِن مختلف الاتجاهات، وتحديدا مِن اتجاه مسجد الفتح، وما هى إلا لحظات حتى تحوَّلَ المكانُ إلى ما يشبِه الثكنةَ العسكريةَ وعلت الأصواتُ التى تطالب بالتغييرِ والديموقراطية، شعاراتٌ مِن كل الأنواع، وتقدمتْ فِرَقُ الأمنِ المركزي لتغلِقَ جميعَ الشوارعِ المؤديةِ إلى ميدان رمسيس، حاولتُ البحثَ عن صاحبى حتى نخرج مِن هذا المكان، ولكننى وجدتُه محمولا على الأعناق فى وسط الميدان بعيدًا وهو يهتف بصوتٍ عالٍ والجميعُ يردد خلفَه

حاولتُ الوصولَ إليه فى الوقت الذى كانت فِرَقُ الأمنِ المركزي تأخذ أوضاعَ الاستعداد ثم الهجوم، ودارت المعركةُ وسط الميدان، سقَطَ فيها مَن سَقَط، وجُرِحَ فيها مَن جُرِحَ، وجَرَى كثيرون فى

اتجاهاتٍ مختلفة، وكان الجميع يطالهم الضربُ وانا أحاول الوصولَ إلى المكان الذى سَقَط فيه صاحبى .. فى هذه اللحظة.. استوقفنى ضابطٌ بجذبِه لي بشدةٍ قائلا:

- رايح فين يا روح أُمّك؟

فزعتُ ولم أستطع الإجابةَ إلا أن يدَه كانت أسرعَ فى الوصول إلى وجهى..

- انت مع العيال دى؟

تمالكتُ نفسي من الألمِ وأنا أمسك وجهي، بينما ضربتُه الثانيةُ توقِعُني أرضًا

- لا .. ده انا رايح محطة القَطر، عاوز أروح المنصورة

فدفَعَنى بقدمِه بعيداً وكأنه يزيح كومةً من القذارةِ مِن أمامه

- منصورة؟ ابقى روح المنصورة فى يوم تاني يا ..... أُمّك

سقطتُ بعيداً عن قدميه وتحاملتُ على نفسى، واستندتُ على السور الحديدى، وأخذتُ أسير فى الاتجاه المعاكس للميدان وأنا أبتعدُ وأتذكَّر صديقى الذى لا أعرف ماذا حلَّ به، وأيّ أشعارٍ كان

يقولُها، حتى اسمه .. لم يقُلْ لى ما اسمُه، إنه يومٌ واحدٌ هنا، قابلتُه بالأمس صدفةً، اصطدمتُ به فوقَفَ وقدَّمَ لى كل الخدمات المتاحة .. واليوم .. هنا أيضًا .. اصطدَمَ هو بالأمن المركزي لكننى لم أستطع إلا أن أمضيَ بعيدًا بعيدًا، أمضي وأتركه .. هل يمكن أن أراه ثانية؟ هل يمكن أن أسمعَ ضحكاتِه المجلجِلة؟ هل يمكن أن أجلس إلى جواره وهو صامتٌ فى الأتوبيس؟ آلاف الأسئلة كانت تتسارعُ فى رأسى بينما طريقى يأخذنى بعيدًا عنه، عن تلك الكوفية الحمراء المذيَّلةِ بعَلَم فلسطين .. وعندما جلستُ فى الأتوبيس لم أفعلْ شيئا، لم أنظرْ يمينًا أو يسارًا، فقط أخذتُ أنظر إلى الأمام، وحدي هذه المرة وعلى الرغم من قِصَرِ مدةِ علاقتى به إلا أننى شعرتُ أن غيابَه قد أحدَثَ بداخلى شرخًا عميقًا .

obeikan.com

(٣)

ما إنْ فتحتُ بابَ المقبرةِ التى أسكنُ حوشَ إحدى غُرَفِها العلويةِ حتى اتجهتُ مِن فوري إلى باب أُم آمال، طرقتُ البابَ، فتحتْ نفسُ اليدِ البابَ وقدمتْ إليَّ الكبريتَ والشمعةَ والمفتاحَ وأغلقَتِ البابَ، أشعلتُ الشمعةَ وصعدتُ السلمَ، لم أتوجّه إلى الغرفة، وجدتُ السطوحَ أمامي خاليًا، دخلتُ إلى السطوح وجلستُ فى أحد أركانه وأشعلتُ سيجارةً وأخذتُ أرقبُ أضواءَ القاهرةِ المترامية على البُعد .. كل هولاء الناس، وكل هذه البيوت المغلقة، وكل هذا الضجيج .. وأنا هنا أشعر أننى وحيد .. وحيدٌ بعد أن غاب عنى صاحبى الذى لم أعرفه جيدا، شعرتُ بالوحدةِ تخنقنى، وأشعلتُ سيجارةً ثانية .. مِن بعيدٍ تبدو قلعة صلاح الدين ومسجد محمد على .. كل شى كما هو، الناس خلف أبوابِهم ، حتى المرأة التى تغسل كاشِفةً عن

ساقيها ربما مررتُ بها ولم أنظرْ إليها، لماذا ينتابُنى هذا الشعورُ بالوحشة؟ وهذا الضابط لماذا ضربني بكل هذه القسوة؟ والذين سقطوا تحت الأقدام، والدماء التى سالت لماذا؟ حاولتُ أن أبحثَ عن إجاباتٍ فى رأسي .. لكننى بدأتُ أشعر بالنعاس، خاصةً بعد ما ذبُلت الشمعةُ تمامًا، قمتُ متَّجِهًا إلى الغرفة، فتحتُ البابَ واتجهتُ مباشرةً إلى السرير، ألقيتُ نفسي عليه ولم أشعرْ بعدَها بأي شىء .

obeikan.com

(٤)

فتحتُ عينَيَّ فجأةً مجاهدا للحيلولة بين ناظري وبين ضوء الشمس الذى اقتحم الغرفةَ فجأة، وأخذتُ أتأملُ ما حولى بدهشة، لم تكن الدهشةُ منِ كمية الضوء الداخل من النافذة الزجاجية المطلةِ على ناحية الشرق، بل كانت دهشتى الكبرى من الغرفةِ التى كنتُ أنام فيها، لم تكن هذه هى الغرفة التى تركتُها بالأمس، كانت النظافة والترتيب يَعُمَّانِ المكانَ .. وقفتُ وأنا أتأمل ما حولى.. منضدة عليها مفرش وفوقها فازة بها بعض الورود الصناعية أضيفت إلى جوار الكرسى، شماعة علِّقتْ عليها الملابس النظيفة وملابس أخرى، مكواة موضوعة بعنايةٍ على منضدةٍ أخرى تحت الشبّاك، أدوات الطعام نظيفة، والوابور كأنه تبدَّلَ وحلَّ محلَّه آخرُ جديد، الأرض وضُحَتْ ملامحها من شدة النظافة، والسرير ملاءاته

تبدلتْ وأصبحت أكثرَ نظافة. نظرتُ إلى أعلى وهالنى ما رأيت، نجفة .. نعم نجفة حقيقية معلَّقة فى السقف، بسيطة نعم .. ولكنها حقيقية.. وحين اتجهتُ إلى مفتاح الإضاءة وقمتُ بتشغيله وجدتُها تضىء. هذا أكثر ما كنتُ أتمناه، أن تدخل الكهرباءُ إلى الغرفة، وتذكرتُ النكتةَ القديمةَ عندما صرخ أحدُ الفلاحين أثناءَ الفيضان « الميه دخلت البيوت يا عُمده، فأجابه العمدة عُقبَال الكهرباء يا وله» .. ابتسمتُ وقلتُ مَن يدرى؟ لعلِّي أتمكن من عمل توصيلة مياه إلى داخل الغرفة لأستخدمَها فى غسيل وجهى، وربما تساعدنى الظروفُ أكثر وأستقطِع مِن راتبى ما يمكننى من عمل حمَّام خاصٍ بي، وأخذتُ أراقِبُ المكانَ واللمساتِ التى أضيفتْ إلى كل الأركان، كانت لمساتٍ أنثويةً، لمساتٍ رقيقةً لا تعبِّر بأيةِ حالٍ عن سُكّان هذه المقابر.

أفقتُ مِن دهشتى على صوتٍ يَطرُقُ البابَ، تخيلتُ أنه صاحبى «شاعر الشعب» ففتحتُ البابَ مسرعًا فوجدتُ أُم آمال وهى تسألنى إنْ كنتُ لن أذهب إلى العمل اليوم؟ تذكرتُ سببَ قدومى إلى هذه المدينة، ولم أشكرها على ما فعلته بالغرفةِ ولا على هذا الاهتمام، كل ما فعلتُه كان أن اختطفتُ الفوطةَ وأدواتِ الاستحمام وأسرعتُ

إلى الحمَّام، كانت السيدةُ السمينةُ قادمةً مِن آخِر الردهة فى اتجاه الحمَّام، لكننى كنتُ أسرعَ منها، وأغلقتُ خلفي بابَ الحمَّام ونسيتُ أُم آمال واقفةً أمام باب الغرفة .. استمتعتُ بالمياهِ وهى تجرى على جسمى فى هذا الصباح بشكلٍ لم يحدث لى من قبل، وأخذتُ أحلِق ذقنى بكل رويةٍ محاذِراً أن أجرحَ نفسى، وفى نفس الوقت محاولا أن أُطيلَ الوقتَ على الواقفةِ بالباب تنتظر دورَها فى الدخول، شعرتُ بالانتعاشِ وانتابنى إحساسٌ بالضيق لأننى أحسستُ بهذه البهجةِ على الرغم مما حدث لصديقى ليلةَ البارحة، وضعتُ رأسى ثانيةً تحت مياه الصنبور المندفعة وحاولتُ أن أستفيق وأستجمِعَ بقايا قوةٍ كانت قد انهارت على مدارِ اليومَيْنِ الماضيين، وعندما نظرتُ فى بقايا المِرآه المعلقة فوق الحوض لم أستطعْ تحديدَ ملامحى كاملة، وإنْ كنتُ قد لاحظتُ أن أثرَ الإرهاقِ الذى كان يحيط بعيني لم يعد موجوداً. جففتُ رأسى بعد أن عدلتُ ملابسى، وما إنْ فتحتُ البابَ حتى جذبتنى الواقفةُ بالخارج تنتظر وألقتنى خارجًا فى نفس لحظةِ دخولِها وإغلاقِ البابِ خلفَها. اتجهتُ إلى غرفتى وأنا ما زلتُ أُجفِّفُ رأسى بالفوطة، وحين فتحتُ عيني وجدتُ أمامى طعامَ إفطارٍ شهي من العيش والطعمية والفول بالليمون وبعضِ

أعواد الجرجير وكوبٍ من الشاي، تفحصتُ الغرفةَ فلم أجِد أُم آمال، حين نزلتُ كانت أُم آمال فى حالةِ عراكٍ مع إحدى النساء وهى تجذبها مِن شَعرِها، والأخرى تقاوِم بكل ما أوتيتْ من قوة، وأُم آمال تكيل لها السبابَ والضرباتِ، توقفتُ لحظاتٍ ولكن أُم آمال مدتْ يدَها إليَّ بنظرةٍ شرسةٍ فناولتها المفتاحَ الذى وضعَته داخلَ صدرِها ثم التفتتْ إلى المرأةِ وهى تكيل لها جميعَ الشتائمِ المعروفةِ والمبتَكَرة..

خرجتُ إلى طريقى وعند الباب الذى تغسل خلفَه المرأةُ لم أنظرْ وإنما رفعتُ يدي بالتحيةِ وأنا أواصل السيرَ فى طريقى، وعند مروري «بقهوة كتكوت» رفعتُ يدي بالسلام للجالسين وواصلتُ .. فى الأتوبيس جلستَ محدِّقًا إلى الأمام.

فى المكتبِ استقبَلَنى الزملاءُ بشىءٍ من الفتور واللامبالاة، كانت الحجرة صغيرةً وبها حشدٌ كبير من الموظفين، ومِن أحدهم فهمتُ أنه يكفى أن أَمُرَّ مرةً واحدة أسبوعيًا للتوقيع بالحضور لباقى أيام الاسبوع .. هكذا يفعل الجميعُ هنا، أمَّا سببُ هذا الزحام اليوم فهو موعدُ صرْفِ الراتبِ الشهري، وهذا هو اليوم الذى يمكن أن أرى فيه أيَّ أحدٍ هنا.

استفسرتُ .. هل مِن يوم محدد؟ وأجاب بأنه اليوم الذى أختارُه أنا شرْطَ أن يكون ذلك كل أسبوع، وبغمزةٍ مِن عينِه أردفَ قائلاً حتى إذا حدثتْ فى الأمور أمور، فيمكن تدارُكُ الموقفِ، أمَّا إذا تعدت المدةُ أسبوعيْن .. فعندها قد يحدث ما لا يُحمَد عُقبَاه، وعندما عرفتُ أننى لن أنتظرَ الصرَّافَ مثلَهم لأننى قمتُ منذ فترةٍ بتحويل راتبى إلى البنك أشار إليَّ بطرف عينِه أنِ انصرِفْ..

خرجتُ مِن المكتب وأنا لا أدرى إلى أين يمكن أن أذهب الآن، عرجتُ فى طريقى إلى البنك وهناك تقاضيتُ راتبى عن الشهر الماضي، وخطرَ لى أن أبحثَ عن صاحبي .. صاحبي الذى لا أعرفُ له اسمًا، اتجهتُ إلى نفس المكان الذى ذهبنا اليه بالأمس، كان الوقتُ مبكرًا .. ولكن كان هناك البعض يتحدثون ويشربون البيرة .. عددُهم قليل ولكن أصواتهم صاخبةٌ كالعادة، تجولتُ فى المكان وجلستُ وحيدًا فى أحد الأركان، وضَعَ الجرسون أمامى زجاجةَ بيرة وانصرَفَ .

ولاحظتُ أنه أيضًا يرتدى كوفيه عليها عَلَمُ فلسطين، أخذتُ أراقِبُ المتحدثين. وبعدَ برهةٍ خرجتُ، قادتنى قدمايَ إلى ميدان رمسيس، الحركةُ عاديةٌ، لا شىءَ يشير إلى أنه كانت هنا

بالأمس معركةٌ بين دُعَاةِ التغيير والديموقراطية وأعداءِ التغيير والديموقراطية، السياراتُ تمُرُّ مِن كل اتجاه، والبشر يتقاطعون فى سيرهم وإنْ كان القادمون من اتجاهِ مسجد الفتح يضعون أيضًا كوفياتٍ عليها عَلَمُ فلسطين، حاولتُ التقرُّبَ مِن الناس أكثرَ علِّي ألمحُ أحدَ الوجوهِ المألوفةِ التى تعرف صاحبي ولكننى لم أتمكن، قال لى إن الجميعَ يعرفونَه، وإن صورَه موجودةٌ فى الجرائد .. اشتريتُ الجرائدَ اليوميةَ مِن على الرصيف وواصلتُ المسيرَ حتى ميدان العتبة، ومِن هناك ركبتُ الأتوبيس ونزلتُ فى محطة النهاية، وعند مروري بـ «قهوه كتكوت» لفتَ نظري وجودُ شخصٍ ضخمِ الجثة ولكنه مربوطٌ بالشاش من نواحٍ كثيرة وهو يشرب الشيشة، تأملتُه، إنه عبد البر.. ذلك الذى كان يمسك بالسيفِ بالأمس .. يبدو أنه خاض معركةً كبرى خرَجَ منها بهذه الجراح، أشار لى أحدُ الجالسين على المقهى وبصعوبةٍ أدركتُ أنه صاحب الغرفةِ التى أسكن بها «صلاح». توجهتُ إليه مسرعًا وطلبتُ لنا اثنين شاي، وأخَذَ الحديثُ يدور بنا فى اتجاهاتٍ متفرقةٍ وأنا أحاول أن أجِدَ طريقا أسال به عن صاحبي ، سألَنى عن سبب حضوري إلى هنا وعن عملى والجهةِ التى أتيتُ منها وعائلتى .. وهل أنا متزوجٌ أم

لا، وما هى المدةُ المقررة لإقامتى فى هذا الحوش، وطبعًا سألنى عن اسمي وبلدي الأصلي والقريةِ التى ولِدتُ بها، وتَعَرَّفَ على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ عن حياتى، وأخيرًا أخبَرَنى بأنه لولا صاحبي لَمَا قَبِلَ أن يسكن أحدٌ هذه الغرفةَ بعد الست والدتِه.

- اللّه يرحمها .. لكن قولى لى .. هوه انت ما شفتش صاحبي من امبارح؟

- الحقيقه مِن ساعة ما خرج معاك امبارح العصر .. ما شفتوش.

- أصله كان بيقول لى إنه صوره ماليه الجرايد، وأنا بصراحه اشتريت كل الجرايد النهارده ما لقتيش ليه صوره..

- جرايد إيه؟

- الجرايد القومية.

ضحك صلاح ضحكةً عاليةً لفتت أنظارَ جميعِ الجالسين وشعرتُ عندَها بالحرج لكنه وهو يقاوم الضحكَ قال:

- الجرايد القومية دي تنشر صورة صاحبك لمَّا يموت، لكنه طول ما هوه عايش هتلاقيه فى الجرايد المعارضة.

- مش فاهِم

- أصل سليمان ..

- هوّه اسمه سليمان؟

اندهش صلاح وعاتَبَنى باستغراب:

- هوَّه انت مش عارف اسمه؟ اُمّال بتقول صاحبك إزاى؟!!

- لا .. أنا قصدى سليمان .. أنا أعرف إن اسمه سليمان، لكن سليمان إيه؟ ما اعرفش.

ويبدو أن صلاح أدركَ أننى أكذب، وأنه وقَعَ ضحيةَ خدعةٍ تَعرَّضَ لها مِن سليمان، ولكن يبدو أن استجوابَه الأولِـيّ لى قد أقنَعَه بالتجاوز عن هذه الخدعة وإذا به ينطلق هذه المرة، ولكن بدلا مِن سيلِ الأسئلةِ السابقِ انطلقَ موضحًا كل شيء عن سليمان :

- سليمان.. هوّه فيه حد زيه؟ ولاّ حد يعرف يعبّر زى سليمان؟ سليمان الريس ده أحسن واحد كتَب شِعر فيكى يا مصر من أيام بيرم التونسى، وعلشان كده سمّوه شاعر الشعب.. مافيش عيّل صغير هنا إلا لمّا تلاقيه عارف سليمان الريس، وحافِظ كمان أغانيه، واللى كان مخلِّي كل الناس تحب سليمان الريس إنه عمره

ما قال على واحد غلط وطلع إنه سليمان غلط.. ليه نظرة فى الناس .. يبص لك يعرف إذا كنت بنى آدم صحيح .. والّا أي حاجة تانية.. وعلشان كدة لمّا جِه ياخذ المفتاح بتاع الاوضه وقال لى ده صاحبى أنا أكلتها بمزاجى ..لأنه ما دام قال على واحد صاحبى يبقى أكيد واحد جدع.. لا يخون أمانه.. ولا يطلَع واحد هفأ.. سليمان الريس يقدر يبُص جوّه أى بنى آدم .. يقدر يعرف انت بتفكر فى إيه من غير ما تقول .. يقدر يحس إذا كنت انت تعبان.. حتى قبل انت نفسك ما تحس إنك تعبان.. ما فيش حوش فى المنطقه هنا ما يعرفش سليمان الريس . مع إنه مِن يوم ما سكن هنا . ما حدش سأله ..أهلك فين؟ ولا انت جاى منين؟ ولا حتى بتشتغل إيه؟ تعرف.. أنا كان نفسي أديله الأوضه اللى انت سكنت فيها وقلت له كده يوم ما جِه ياخد المفتاح قلت له يسيب لك الأوضه بتاعته وياخد هوّه الأوضه فى الحوش عندنا.. لكن هوّه ما رضيش، الظاهرعليه ما حبِّش يتعبك ..

وهكذا، وبدون أن يدري أوضَحَ لى صلاح كثيراً مما كنتُ أجهلُه عن صديقى وصاحبى «سليمان».. وإنْ كان ما يجهله صلاح أكثرَ مما يعرف، تُرَى أين أنت الآن يا سليمان؟ وماذا حدث لك بالأمس؟ هل

جُرِح؟ هل ساقوه مع مَن أخذوهم فى السياراتِ المدرَّعة؟ هل مات؟ وانزعجتُ لهذا الخاطر، حاولتُ أن أطرده عن رأسى، ربما هَربَ، ربما هو يختبىء فى غرفتِه بالحوش الذى يسكنه، سألتُ صلاح :

- اُمّال هيّه أوضة سليمان فين؟

نظرَ صلاح إلى جوارِه مستريبًا وأشار بطرفِ عينِه:

- فى الحوش اللي قُدّام حوش عبد البر التُّرَبي

وارتسمتْ على وجهى ابتسامةٌ خفيفةٌ، يا لكَ مِن ماكرٍ يا سليمان، طبعًا لم تفضِّلْ أن تتركَ لى هذا المكانَ وأنت تنظر فى لحظاتِ دخولِك وخروجِك إلى هذه المرأةِ التى تتشاغل بالغسيلِ كاشفةً عن ساقيها وفخذيها، ولا بُدّ أنك ترى هذه الصورةَ مراتٍ كثيرةً فى اليوم الواحد، وقد تأكَّدَ لى أنك لا تختبىء فى حجرتك .. فلو كنتَ هناك كنتَ سوف تغامر بالخروج على الأقل لإلقاء نظرةٍ على هذه المرأةِ وهذه الأفخاذ التى تأخذ الألبابَ .. أنا شخصيًا نظرتُ إليها مرةً، فعدتُ أبحثُ عنها مرةً أخرى. فما بالنا بمَن ينظر إليها فى الدخولِ والخروج؟ آه منك أيها الماكر سليمان .. عندما مررتُ بالحوش خلفَكَ مرتيْن رفعتَ يدَكَ بالتحيةِ وكأنك لا تُلقي بالاً، بينما

حينما تفتح باب الحوش فى الصباح أو فى المساء فإنك ربما كنتَ تدقق النظرَ، ويبدو أن مكرَكَ هو الذى جعلك لا تحاول أن تلفتَ انتباهى إلى هذا المدخل .. على أن منظرَ عبدِ البر وهو مربوطٌ بهذا الكَمِّ مِن الشاش حول ذراعِه ورأسِه وأجزاء متعددة من جسمِه لم يَحُلْ دون محاولتى المرورَ أمام الحوش فى هذا الوقت، فعبد البر جالسٌ على المقهى .. والمرأةُ لا بُدّ جالسةٌ هناك وراء طشت الغسيل .. آه .. مَن يدري ماذا تفعل الآن؟ ابتكرتُ الحيلةَ وعرضتُ على صلاح أن يأتي معي إلى الغرفة ليأخذ بعضَ أغراضِ والدتِه الراحلةِ التى كانت مكوَّمةً فى أحد الأركان، لم يمانِعْ صلاح خصوصاً وهو ما زال يواصل الحديثَ عن سليمان الريس ومآثرِه وأفضالِه ومزاياه، مشينا حتى وصلنا إلى حوش عبد البر، نظرتُ .. لم يكن هناك أى أحدٍ، قلتُ لنفسى ربما فى طريق العودة، وعند عودتنا حرصتُ على أن يكون صلاح على يساري حتى إذا نظرتُ إلى المدخل أبدو كأننى أنظر إلى صلاح .. وفى طريق العودة كان البابُ مغلَقًا إلا أننى فجأة راوَدَني شعورٌ بالأمل، فنظرتُ إلى صلاح واقترحتُ عليه أن ننادي على سليمان ربما كان فى الغرفةِ، نظَرَ إليَّ صلاح فى دهشة.. «ننادي»؟ وأدركتُ المَعنَى الذى يقصده صلاح

وهو الخطأ أن ترتفِعَ أصواتُنا بالنداءِ وسطَ هؤلاءِ الأموات .

ودُهشتُ لهذا التناقض، كل مظاهر صخَبِ الحياة موجودة وسط المقابر، ولكن حين ننادي فإننا يجب ألا نفعل ذلك. اتجَهَ صلاح إلى باب الحوش وفتحه ودَخَل .. وأنا أُمعِن النظرَ باتجاه حوش عبد البر، ولكن الباب المغلق يحول دون رؤية أى شيء، خرج صلاح وأخبرنى أن غرفة سليمان مغلقةٌ بالقفل من الخارج، نظرتُ نظرةً أخيرة إلى حوش عبد البر وسرتُ إلى جوار صلاح وهو يتحدث فى مواضيعَ شتَّى، بينما كانت رأسي تتصارعها أفكارٌ مِن نوعيةٍ مختلفة..

ودَّعتُ صلاح على المقهى وتناولتُ طعامًا سريعًا فى أحد المحلات، وعدتُ إلى الحوش الذى أسكنُ إحدى غُرَفِه وأنا أُمَنِّي النفسَ بقسطٍ من النوم استعدادًا لليلةٍ طويلة أجوبُ فيها مدينةَ القاهرة وشوارعَها التى أحفظُ كثيرًا منها

وعلى بابِ الحوش وجدتُ أُم آمال جالسةً جلستَها المعتادةَ وهى تتناول القهوةَ مع السيجارة، وضعتْ يدَها داخل صدرِها وأخرجتِ المفتاحَ لتناوِلَنى إياه، إلا أننى لاحظتُ أن وجهَها به الكثير من

التعبيرات، لم يكن مزاجُها رائقًا كعادتِها فى هذا التوقيت، وعندما سألتُها عن سبب ذلك دعتني إلى الجلوس لشربِ القهوة، كان إلى جوارِها ما يشبِه «البرش» قطعة كبيرة من الصخر على هيئة «دكة» يغطي نصفَها كليمٌ يدوي الصُّنْع والنصف الآخر عليه عِدة القهوة، السبرتايه والكنكة والبُن والسكَّر والملعقة الصغيرة وعلبة الكبريت وزجاجه الماء، وكل ذلك موضوعٌ فى صينية نحاس.

جلستُ إلى جوارها وأنا أراقِبُها تصنع لى القهوةَ بينما هى تجلس على الكرسي الفوتيه المذهَّبِ الذى زالتْ عنه كل مظاهرِ الأرستقراطية، ولكن يبدو أنها لم تغيِّرْ فيه شيئا.. ما زال هناك بعض اللون الذهبي على اليديْن، وما زالت القماشة تبدو متماسكةً على الرغم أنه يبدو أن الزمنَ فعلَ فِعلَه مع هذا الكرسي. قدمتْ لى القهوةَ وبدأتْ تحكي بصوتٍ يملؤه الحزنُ والغضب:

- الوليه الوسخه فاكره نسوان الأحواش كلهم شبَهها .. طيب هيه واحنا عارفين إيه الحكاية، تقوم تلسِّن على نسوان أشرف منها؟ طيب ما أنا قادره افضحها عند جوزها اللى عامل سبَع رجاله فى بعض، وهيه عاملاه زي المقطف ولا هوّه داري، مش أنا أقدر أعمل كده؟! أقدر ونُص، لكن أنا مش هاعمل زيها وأدور ألَسِّن عليها فى

كل حته ..

أدركتُ أننى لا أعرف أولَ الموضوعِ مِن آخره فتدخلتُ فى الحوار:

- قصدك ..

لم تمهلْنِي حتى أكمل السؤالَ ولكنها استطردتْ:

- الوليه مِرات عبد البر.. ما كل نسوان الإمام عارفين أفعالها، وإذا مش مصدقنى اسأل أي واحده من النسوان، ولو مش مصدق ما تسأل صاحبك .. ما هو روخر كان مِرَافقها.

وقَعَ الخبرُ على رأسى كالصاعقة .. سليمان؟!..آه .. يالك من وغدٍ، كنتَ أنت إذاً واحداً مِن الذين استمتعوا بهذه المرأةِ فى فترةٍ مِن الفترات .. وبدأتُ أحسدُ سليمانَ على ما فعل لولا أن أيقظَنى صوتُ أُم آمال:

- لكن تفتكر أنا كان ممكن أعمل إيه؟ ما كانش قدَّامى غير إنى أمسكها أرِنّها العّلقه اللى هيه ساعة ما انت شوفتنى النهارده الصبح

وضحكتُ فى داخلى، إذاً هذه التى كان يُكال لها السبابُ والضرب هذا الصباح هى هذه التى كنتُ أبحث عن نظرةٍ منها أو لها منذ

قليل، من المؤكد أن ضرباتِ أُم آمال هى التى أدت إلى أن تُغلِقَ المرأةُ بابَ الحوش .. ولا أعرف لماذا شعرتُ بالسعادةِ لأن هذه المرأةَ قد نالَها هذا الضرب .. فى الوقت الذى شعرتُ فيه بالأسى لِمَا نال سليمانَ بالأمس .. الأمس، وعندئذٍ تذكرتُ الضربَ الذى نالنى من الضابط .

أخذتُ أنظر إلى أُم آمال مباشرةً .. كان تعبيرُ وجهِها مختلِفًا وهى تحكي عن الضرب الذى نال المرأةَ منها، بدتْ أكثرَ شراسةً وإنْ لم يَخْفَ جمالُ وجهِها الذى كانت السنين قد بدأت تداعِبُه مِن بعيد .. ووسطَ اندفاعِها سقطتِ الطرحةُ مِن على رأسِها .. كان شَعرُها أسودَ يميل إلى اللون الكستنائي، عدلتْ وضْعَ الطرحةِ على كتفيها وهى توضِّحُ وجهةَ نظرِها فيما حدث، وإنْ كان حديثُها قد بدأ يقِلُّ انفعالا، فأخذتْ ملامحُ وجهِها تهدأ شيئا فشيئا وكأنها كلما تحدثتْ نفثتْ عن غضبٍ كان يعتمِلُ بداخلِها، بدا جمالها يَظهر شيئا فشيئا، كانت أُم آمال جميلةً بالمعنى العام للكلمة.. لم تكن صارخة الجمال..لكن ملامح وجهها من النوع المريح للعين إذا نظرت اليه .. لم تكن تكبُرُنى بكثير، كان عمرُها تقريبًا فى أواسط الثلاثينات فى حين أننى كنتُ قد أكملتُ الثلاثين منذ شهور، شعورٌ

بداخلها يتسربُ إلى مُحدِّثها فجأةً بأنها أُمّه أو أُختُه الكبرى .

يبدو أنها عانت الكثيرَ فى حياتِها فانعكسَ هذا على سلوكِها، لم أشأ أن أقاطعَها وأتدخل فى الحوار إلا أننى حين شعرتُ بأنها قد هدأتْ تماماً شكرتُها على القهوةِ وأخذتُ طريقى إلى الصعود..

استوقَفَتني في منتصف السلّم وأخبرتنى أنها صنعتْ طعاماً للغذاء «على قد ما قُسِم». شكرتُها بابتسامةٍ عريضةٍ لم تُلْقِ إليها بالاً وعادتْ إلى سيرتِها الأولى وهى تشعِل سيجارةً وتنفث دخانَها وتنظر إلى خارج الحوش وكأنها تنتظر عزيزًا لديها، لم أشغل بالي وواصلتُ الصعود، دخلتُ غرفتى وارتديتُ ملابسَ النوم، استلقيتُ على السرير وراحت آلافُ الأفكار تدور فى رأسى، ثم استقرتْ عند زوجةِ عبد البر التى يَعرف الجميعُ عنها كلَّ شيء

وأملتُ أن أراها مرةً أخرى جالسةً خلف طشت الغسيل رافعةً جلبابَها إلى وسطِها غيرَ عابئةٍ بمَن حولها، وأخذَ الخدَرُ الخفيف يلفُّ جميعَ أطرافى، ومع حلول الغروب كنتُ قد رحتُ فى نومٍ عميق .

استيقظتُ فَزِعًا على صوت طرقاتٍ عنيفةٍ على الباب، كان ضوء القمر الداخل إلى الحجرة هو الوسيلة الوحيدة للرؤية، اتجهتُ

مباشرةً إلى المفتاح الكهربائي وأشعلتُ النجفةَ فأضاءت الحجرة، فتحتُ البابَ فوجدتُ صلاح .. حاولتُ أن أفهمَ منه سببَ هذه الزيارةِ فى هذا الوقت ولكنه ألَحَّ عليّ بأن أرتدي ملابسى وأنزل معه فى الحال، حاولتُ التعللَ بِحُجَجٍ وأعذارٍ عدة، ولكن ذلك لم يثْنِ صلاح الذى أخذ يكرر طلبَه، ولم أجد بُدّاً من الامتثال لرغبتِه ونزلتُ معه وهو يغمغم بكلامٍ غيرِ مفهوم.

سرتُ خلفَه فى الطريق حتى إذا وقفَ أمام حوش عبد البر دهشتُ، لكنه توجَّهَ مباشرةً إلى الباب وأخذ يطرقُ بعنف، تقدمتُ إلى جواره محاولا إخبارَه بالطَّرْقِ الخفيف وهو عُذرٌ لى كى أنظر مِن فتحةِ البابِ عندما يفتح، استمر الطَّرْقُ على الباب فترةً من الوقت ثم انفتَحَ الباب، وجدتُ المرأةَ زوجةَ عبد البر واقفةً بقميص نوم أحمرَ شفافًا يكشف عن جسدها أكثرَ مما يستر، أخذتُ أتأمل ما أستطيع النظرَ إليه محاولا اختراقَ ما تحت القميص الأحمر الشفاف بينما هى تتساءل بدلالٍ مَن نكون؟ وماذا نريد؟ وأخبَرَها صلاح بغضب أننا نريد المعلِّم عبد البر، وعندما سألتْ مَن نكون كانت تتلوى وهى تسأل، إلا أن صلاح أجابَها بغضب:

- قوليله صلاح .. صلاح السمان صاحب الحوش ومعاه الساكن

الجديد

- حاضر ..

قالتها المرأةُ وأعطتنا ظهْرَها ليبدو لى الكثير مما كانت تخفيه أثناء الغسيل، وغادرتْ وأنا ما زلتُ أنظر إليها بينما كان صلاح فى قمةِ الغضب، وغابت المرأةُ فى الداخل وبعد قليلٍ حضر عبد البر وهو يرتدى السروالَ الأبيضَ الطويل والفانلةَ ذاتَ الأكمام وبيدِه السيفُ الحديدي، نظر عبد البر إلينا بتوجسٍ، ثم أخرج رأسَه من الباب والتفتَ يمينًا ويسارًا ثم اطمأنَّ ونظر إلينا وقد زال الغضبُ عنه:

- تعرفوا .. حظكوا كويس.. أنا افتكرتكو مخبرين من المباحث

فنظر إليه صلاح وقال:

- يعنى كنت هتعمل إيه لو كنا مخبرين من المباحث؟

فزغَرَ له عبد البر:

- كنت هتلاقى تلاتين قلم نازل فوق قفا كل واحد منكم

شعرتُ برغبةٍ فى الضحك ولكننى كتمتُها؛ فهذا المغوارُ كان

يختبىء فى الداخل مُخرِجًا امرأتَه بهذا القميص لتسأل مَن على الباب، وعندما اطمأنَّ خرج علينا بهذه الصورة. عرَضَ علينا الدخولَ لشرب الشاي

رفَضَ صلاح بشدةٍ إلا أننى أصررتُ على تليبة رغبة الرجُلِ، وحيث لا يجوز الحديثُ فى الشارع هكذا، رضخَ صلاح ودخلنا لتناول الشاي مع حجرين، قامت زوجتُه بإعدادِهما لنا بينما هى ما زالت بالقميص الأحمر الشفاف الذى يكشف أكثرَ مما يستر، كان صلاح قد سمع حديثًا بأن عبد البر يريد أن يضعَ يدَه على الحجرةِ الخالية التى توجد بحوش صلاح ، وصلاح يريد أن يعرِّفَ الرجُلَ بأننى ساكنُ تلك الغرفة، وانتهى الخلافُ على ذلك .. فأنا ساكن وموجود فى الغرفة، وصلاح هو مالك الحوش ولا حق لعبد البر. وتصافَحَ الرجُلانِ على هذا مع وعدٍ مِن عبد البر بعدم التعرض لهذا الحوش بالذات إكرامًا لصلاح حيث إنه أتَى إلى منزلِه فى هذا التوقيت، وأنه كرجُلٍ حُرٍ يحترم أيَّ رجُلٍ يدخل إلى بيتِه وينفِّذُ له طلباتِه حتى لو كانت أن يذبَحَ له أحدَ أطفالِه.

نظرتُ إلى هذا التناقضِ الموجود فى شخصية عبد البر وهو يقابلنا بهذا اللباس الذى يرتديه وكذلك زوجته، ورأيتُ أن آثارَ

الجروحِ التى كانت مربوطةً بالشاش فى الصباح على وجهِ وذراعِ عبد البر ما زالت موجودةً على الرغم مِن أنه أزال عنها الشاشَ، ويبدو أن ذلك لفتَ نظرِ عبد البر فظن أننى أنظر إلى ملابسه فاعتذَرَ عن هذا اللباس لشدة الحَر فى هذا الحوش، وأن هذا هو الدافع الذى كان يدفعه لمحاولةِ الحصول على الغرفة التى سكنتُها أنا، بينما كانت المرأةُ تستعد لتقديم «الجوزه» لى كواجبِ ضيافة وهى تميل بصدرِها إلى الأمام فنظرتُ إليها شاكراً بينما عيناىَ تجولانِ فى صدرِها، وما أكثر ما استطعتُ أن أراه فى هذه الليلة ويبدو أننى رأيتُ الكثير والكثير، أو بمعنى أدق شربتُ الكثير من «الحشيش» إذْ إننى عندما أراد صلاح أن نقوم كان يجب على أن أستنِدَ على ذراعه. صافحتُ عبد البر وصافحتُ المرأةَ التى ضغطتْ على يدي طويلاً، مماً زاد من تأثير المخدر فى جسدى حتى أننى كدتُ أن أقعَ لكنها أسندتني بيدِها بينما كانت اليدُ الأخرى على صدري.

أوصَلَني صلاح إلى الغرفةِ وأغلَقَ البابَ خلفي وأنا لا أشعر سوى بأننى كنتُ مسلوبَ الإرادةِ والتفكير فى هذه المرأةِ ذاتِ الثوب الأحمر الشفاف وزوجِها ذي السيفِ الحديدي، وتراءت لى أفكارٌ كثيرةٌ ورأيتُ نفسي فى أوضاعٍ كثيرةٍ أضاجِعُ المرأةَ

وأضرِبُ زوجَها بالسيفِ وأشطرُه إلى نصفيْن، فيقوم كل نصفٍ ويحاول أن يصارعنى، فأصرع النصفَ الأول وأرتمى فى أحضان المرأة، وأصرع النصف الآخر وارتمى فى أحضان المرأة، ويجتمع النصفانِ ويتَّحدانِ علىّ ويضربانِى بكل قسوة، إلا أن المرأةَ تذودُ عنى .. وتأخذنى إلى أحضانها وأذهب بها بعيداً إلى حيث البحرُ والأشجار ويتراءى لى عبد البر كشجرةٍ عملاقةٍ تحاول أن تلقي بى فى مياه البحر العميقة إلا أن المرأةَ التى نبتَ لها ذيلُ سمكةٍ عملاق تضربُ الماءَ وتدفعنى إلى أعلى وهى تقبِّلُني قُبُلاتٍ عاشقةً فتتحول الشجرةُ إلى حوتٍ كبير يطاردنا فى الماء فتغوص هى بى إلى الأسفل، فإذا الحوتُ يُخرِج مِن بين أسنانه ما يشبه المادةَ السوداءَ التى تحاصرنا، لتأخذنى المرأةُ إلى أعلى وأنا بين أحضانها وهى تزيحُ الماءَ عن وجهى وتحاصرنى بقبلاتٍ حارةٍ فألتفِتُ إليها لأجد المادةَ السوداءَ تَخرج مِن فمِها وتستقر فى معدتى، فأشعر برغبةٍ حادةٍ فى القيء ولا أستطيع الوصولَ إلى الحمَّام فتمتلىء الحجرةُ ببقايا ما كان فى معدتى، ثم أتطوّح يمينًا ويساراً حتى أسقط على السرير ولا أشعر بشيءٍ بعدَها .

obeikan.com

(٥)

شعرتُ بأننى أختنِقُ وسطَ مياهِ البحر، حاولتُ النجاةَ مطوِّحاً بيدي فى كل اتجاه .. فتحت عينى .. وجدتُ أُم آمال واقفةً إلى جوارى وبيدها جردل ماءٍ قد صبَّته فوقى كاملاً، نظرتُ متسائلاً إلا أننى عندما لم أتلقَّ إجابةً أطرقتُ بعيني إلى الأرض، وعندما وجدتُ الأرضَ ممسوحةً أدركتُ ما حدث، فقدْ تَرَكنى صلاح ويبدو أنه تركَ المفتاحَ فى البابِ من الخارج، وحين شعرتْ أم آمال بغيابى صعدتْ لتستطلع الأمر، ولم يكن الأمر يحتاج إلى خبيرٍ، فقدْ عرفتْ أننى تناولتُ المخدرَ عند عبد البر وزوجتِه، وأننى عدتُ فى حالةٍ غير التى ذهبتُ بها فنظَّفتِ الغرفةَ وأفاقتنى بهذه الطريقة .

حاولتُ أن أُبدي اعتذاري أو أجد أيَّ كلماتٍ أعبِّر بها عن أسفى لِمَا حدث ولكننى عندما نظرتُ إلى أم آمال وجدتُ فى عينيها نظرةَ

إشفاقٍ وأسًى وهى تدفع ناحيتى الفوطةَ ثم تغادر الغرفةَ فى صمت . لففتُ رأسى بالفوطة كى أضع حداً لهذا الصداع الذى يهاجمنى بشدةٍ وتمنيتُ أن أمضى اليوم فى هذه الغرفة متحاشيًا أن أرى أم آمال إلى أن أجد وسيلةً أعتذر لها عما حدث، ولكن اليوم كان له شأنٌ آخر.

ما إن تمددتُ على السرير حتى فُتِحَ الباب، كان سليمان الريس واقفًا، قفزتُ من السرير وأخذتُه فى أحضانى وكأنه صديقُ طفولتى، وبينما أبدل ملابسى كان كعادته يعد الشايَ لنتناوله معًا ومِن كلامه فهمتُ أن النيابةَ أَفرجتْ عنه منذ قليل، وأنه جاء ليأخذنى معه فى جولة .. وذلك بعد أن نمُرَّ على أم آمال وأحصل على رضاها .

فهمتُ أنها حكت لسليمانَ ما كان مِنّى فى الليلة السابقة، وكم كانت سعادتى بوجود سليمان معى فى هذه اللحظةِ بالذات فهو الوحيد الذى ربما يستطيع أن يجعل قلبَ أمِّ آمال يلين، وبينما نحن نتناول الشايَ سألتُه ...

- أُمّال .. آمال بنتها فين؟ انا ما باشوفش حد معاها؟!

ضحك سليمان ضحكتَه الجميلةَ وأردف:

- أُم آمال اتجوزت وهيه صغيرة، وجت الحوش هنا مع جوزها، سبع شهور، وكان ودَّع، مات يعنى .. هيه فضلت هنا من يومها، لا ليها حد تروح له، ولا حد ييجى لها، لكن بعد فترة لقيوا بنت مرميه قدام الحوش، هيه أخدتها وقالت تربيها.. بنت صغيرة عمرها كان يا دوب يومين تلاته. هيه سمت البنت آمال بس البنت ما طولتش هيه كمان قبل ما تكمل سنه كانت ماتت، والناس من يومها نسيوا اسمها الحقيقى، وبقى اسمها أم آمال ..

أنا لما جيت سكنت هنا كانت الحكايه دى بقى لها كام سنه، لكن الناس هيه اللى بتحكيها، بس عارف .. الست دى بميت راجل، أنا عن نفسى يوم ما اتزنق وانت عارف صاحبك مزنوق على طول، هيه الوحيدة اللى تفك زنقتى، ولو ما معاهاش تتصرف، مش باقول لك .. ست بميت راجل..

انتهينا من شرب الشاى وبدلت ملابسى ونزلنا، فوجدنا أم آمال جالسةً فى مكانها المعتاد تشرب سيجارة بنهم وهى تنظر إلى الأمام، تحدَّثَ إليها سليمان طويلا وحاول أن يجذبها إلى الحديث

ولكنها كانت ساهمةً لا ترد، قدَّمَ لها عشراتِ الأعذار التى تقال فى مثل هذه المناسبات ولكنها ألقت بعقب السيجارة بعيدا ونظرت إلىَّ بعيونٍ دامعة ..

- خيبت أملى فيك، كنت فاكراك غير كل الحوش اللى حوالينا ..

لم أدرِ ماذا أفعل، هزنى هذا الموقفُ بعنف، وهذه الدموع الحبيسة داخل عينيها تأبى أن تخرج ... جلستُ على الأرض أمامها وأمسكتُ يدَها وأخذت أقبِّلُها وأطلب منها أن تسامحنى، عرضتُ عليها أن أقبِّل قدميها، لا أعرف كيف فعلتُ ذلك، إذْ لم أفعل ذلك فى حياتى، لم أتذللْ لأحدٍ بهذه الكيفية، لكنها رفعتْ رأسى ونظرتْ فى عينى طويلا ثم قالت :

- زي ما أنا فاكراك راجل خليك راجل، فاهِم .. راجل

ثم ضربتنى بيدِها على كتفى وكأنها تختبِر رجولتى، ابتسمتُ ووعدتُها بأننى لن أعاوِدَ هذه الكَرَّةَ، وتركتنى بعد هذا الوعد وخرجتُ ومعى سليمان .. فى الطريق أبديتُ لسليمانَ اندهاشى من تصرفى هذا فضحك وهو ينظر ناحيتى

- طيب ده انت حظك أحسن من غيرك .. ده يوم ما عرفت إنى على

علاقه بالست دى، ضربتنى يا محترم ضرب ما شوفتوش من اتخن مخبر، وفضلت بعدها شهر ما تكلمنيش، خُد بالك .. أم آمال سِت وَحدانيه آه .. بس الشرف عندها حاجه كبيرة قوى.. وبعدين ما دام قالت لك خليك راجل .. يبقى انت حاجه كبيرة عندها.. ماهيه ما تعملش كده غير مع البنى آدميين اللى ليهم لازمه وبس، إنما البنى آدميين الأونطه ممكن تضرب واحد أو واحده، ما يهمهاش.. إنما اللى تعِزّه هوّه ده اللى تخاف عليه ولا يمكن تهينه أو تسمح لأى حد إنه يهينه، مش باقول لك .. انت حظك أحسن من غيرك.. طيب دى فى يوم من ذات الأيام ..

وشردتُ بينما سليمان يواصل حكاياتِه، أيُّ كائنٍ هذه السيدة؟ كيف وقفتْ وهى بنتٌ صغيرة توفِّى زوجُها بمفردها فى مواجهة هذا المجتمع الذى يعيش فى المقابر؟ كيف تكوَّنت لها هذه القوةُ التى تسطيع أن تسيطر بها على المجتمع؟ وكيف استطاعت أن تكوِّنَ هذه الحصيلةَ من المعرفة؟ المعرفة التى تمكنها من التمييز بين الأخيار والأشرار؟ وكيف اختارت أن تكونَ فى هذا النسق من الناس مع أن الناسَ مِن نسقِ زوجةِ عبد البر هُم الذين يسودون فى هذه الأيام .. سواءٌ أكانوا رجالا أم نساء؟

لماذا اختارتْ أن تقف إلى جوار القِيَم الصحيحة؟ وكيف تستطيع أن تدبر حياتَها بلا مُعين؟ وكيف تستطيع أن تتعايش وسط هذا المجتمع الذى لا يعترف سوى بالقوة .. وهى امرأةٌ وحيده؟ وحيدة بلا رجُلٍ إلى جوارها .. وحيدة بلا مالٍ تسطيع أن تشترى به القوة؟

كيف يمكن لامـرأةٍ فى ظل هـذه الظـروف التى سـرَدَهـا علىّ سليمان بسرعةٍ وعُجَالةٍ أن تنتقل من صفوف الضعفاء والمهمَّشين والمطحونين بفقرهم الفكرى والعقلى إلى أن تصير من صفوف صنَّاع القرار القادرين على إداره شؤون مجتمعٍ مثل هذا؟ كيف أدركتْ عجزى أمامها وحوَّلَته من محاولةِ اعتذارٍ قد تصل إلى حد إهانة كبريائى وكرامتى إلى موقفٍ يُحسَب لها ولى فى نفس الوقت؟ صحيحٌ أننى ضعفتُ أمام الدموعِ المتحجرة فى عينها .. كنتُ على استعدادٍ لفعل أى شىء حتى التنازل عن كرامتى مؤقتا لإخراجها من هذه المشاعر، لكنها هى كيف استطاعت أن تقرأ هذا الضعفَ بداخلى وتنظر فى عينى بهذه القوة وتمنحنى إياها فى نفس اللحظة؟ إننى مدفوعٌ وراءَ مشاعرى كدتُ أن أقبِّلَ قدميها مِن أجل أن تسامحنى على خطأ أدركُ أننى ارتكبتُه، لكنها هى .. المرأةُ غير المتعلِّمة التى تعيش وحيدةً وسط هذه القسوة أدركتْ أن

فعلاً كهذا يمكن أن يُحدِثَ بداخلى شرخًا لا تمحوه السنون.

كيف أوقفتنى فى اللحظةِ الفاصلة ما بين فعلٍ قد أندم عليه وحوَّلته إلى فعلٍ مقاوم بداخلى؟ ربما كان هذا ما يسميه الآخرون « الحِكمة». نعم إنها البصيرةُ الثاقبة التى تدرك أين يمكن للإنسان أن يقف، ولكن كيف أتتها هذه الحكمة؟ وكيف تكوَّنت لها هذه البصيرة؟ سليمان رجُلٌ ومتعلم ويَخرج ويتنقل بين الناس ويقرأ ويكتب الشِّعر. لهذا تكونت لديه القدرةُ على الحُكم على الناس، يعلم خيرَهم مِن شرهم ، إنه بالمعنى الخاص مثقّفٌ لكن أم آمال ليس لها ما لسليمانَ فكيف تكونت لديها هذه البصيرة؟ هذا ما سأحاول الكشفَ عنه، وإن كنت أدرك أنه سوف يكون مِن الصعوبة بمكانٍ، فهى – ربما – لا تعلم كيف تكونت لها هذه الرؤيةُ ولا ما هى مصادر قوتِها إلا أن هذا لن يمنعنى من المحاولة .

obeikan.com

(٦)

حين عَبَرنا ميدانَ طلعت حرب فى اتجاه شارع سليمان وانحرفنا إلى أحد الشوارع الجانبية رأيتُ على ناصية الشارع لافتةً مكتوبٌ عليها «مقهى ريش» حاولتُ تأمُّلَ المكانِ إلا أن سليمانَ كان أسرعَ منّى فى دخول الممر، فلحقتُه وهو ما زال مندفعا فى حديثِه الذى كان يتناوله معى أثناء السير، وما هى إلا خطواتٌ قليلة حتى كنا فى مواجهةِ مناضدَ يجلس عليها رجالٌ وفتياتٌ وشُبّان وشابات، وفى المواجهة لافتةٌ تتصف الشارع «مقهى زهرة البستان» وأدركتُ على الفور أن هذه المناضدَ تابعةٌ لهذا المقهى إلا أن أكثرَ ما أثار انتباهى هو معرفة جميع الجالسين بسليمان الريس الذى بادَلَ هذا التحيةَ وعانَقَ ذاك، وجلس إلى جوار هذه وضحِكا ضحكةً من القلب لم أرَ مثلَها منذ غادرتُ طفولتى البعيدة .

أخذَ سليمان الريس يتجول بين المناضد كالفراشة التى تحط على الأزهار بُغيةَ امتصاصِ رحيقِها، لكنه هو الذى كان يمد الجالسين بقدْرٍ من الحيوية، وسرعان ما التفتَ سليمان ناحيتى فوجدنى ما زلتُ واقفا أراقب ما يحدث، فأسرع ناحيتى وجذبنى إلى أحد الأركان وجلس إلى جوارى ونظر إلىَّ متسائلا تشرب إيه؟ ثم أجاب «شاى»، وتحرك سليمان فى سرعتِه المعتادة وحيويتِه المتدفقة وجلس بعيدا إلى إحدى المناضد وبجواره شاب وفتاة ودخلوا فى حوارٍ جادٍ لم ألمح خلالَه ضحكاتِ سليمان الريس التى أصبحت بالنسبة لى علاقةً أميز بها حوارَه مع الآخرين.

كان حين يتحدث جادًا يسمو فى ناظرى ويعلو، ويُخيَّلُ إلىَّ أنه كائنٌ مِن فضاءٍ آخر، إنه يستطيع بحديثه أن يأسُرَ المستمِعَ إليه، وأن يأخذ بعقله قبل قلبِه لكنه حين يضحك كنتُ أدرك أنه يَسخر من شيءٍ ما أو مِن وضْعٍ ما، لكنه أبدا لم يَسخر من شخصٍ ما، كان الناسُ جميعًا لديه حتى أكثرهم شراً هُم آدميون، وهو يقِر أن الإنسانَ كائنٌ غير قابلٍ للسخرية، قد تَسخر من تصرفاتِه أو مِن آرائه أو أفكارِه لكن يظل سليمان حتى أثناء هذه السخرية يبحث عن الإنسانِ الذى داخل هذا الإنسان .. كان يدرك أن بداخل كل

مِن هؤلاء إنسانا، لكنه انطفأَ أو انزوى أو خَبَا خلفَ مطمَعٍ ما أو نزوةٍ شريرة أو رغبةٍ غريزيةٍ استولت عليه، فكان بهذه السخرية التى يُنزِلها بأحدهم كأنه يريد إفاقتَه والبحثَ عن الإنسانِ الكامنِ بداخلِه.

أخذتُ أشرب الشاى بكل هدوءٍ وأنا أراقب ما يحدث حولى، بعضٌ مِن الذين كانوا موجودين كانوا أيضا يضعون الكوفية المذيَّلةَ بعَلَم فلسطين، كانت تدور بينهم حواراتٌ ومداخلات، ولكنهم جميعًا كانوا فى حالةٍ إنسانيةٍ رائعة.

حاولتُ أن أبحثَ عمّا يجمع كل هؤلاء، هل هى الرغبةُ فى التجمع والتوحد؟ هل هى المتعةُ فى الحوار الذى يدور بينهم؟ هل هو البحث عن هذا التجاور الإنسانى الذى يجعلك تشعر بأن مَن يجلس إلى قربك يشاركك شيئًا ما؟ ربما كان هذا هو السبب، ولكن ما هو الذى يمكن أن يجمع كل هؤلاء؟ هل هى الثقافة؟ البحث عن كل جديد فى هذا العالم؟ هل هو استعراضٌ لقراءاتِ ما كَتَبه آخرون؟ هل هو النقاشُ للوصول إلى وجهات نظرٍ محددة تحدد نظرةَ كل منهم إلى العالم؟ ربما كان هذا .. وربما كان التمرد، نعم .. ربما كانت الرغبة فى التمرد على كل الأوضاع الشائكه التى تعم

مدينةَ الفوضى والأحلام «القاهره».. فهُنَا كان نسقُ الحياة مغايرًا، الابتسامة على كثيرٍ من الوجوه .. ووجوه أخرى يعلوها الأملُ وإنْ لم تَخلُ من مسحةٍ من الكآبة.

وفى إحدى جلسات سليمان الريس القصيرةِ إلى جوارى وكانت لا تتعدى الدقائقَ المعدودةَ ليقومَ بعدَها للجلوسِ إلى آخرين .. فى إحدى هذه اللحظات الخاطفة صارحتُ سليمان بما يدور بخاطرى، بدا لى فى البداية أنه انزعجَ، ربما كان يظن فى داخله أننى كأي إنسانٍ عادي لا تشغله هذه الأشياء، ولكنه ابتسَمَ ابتسامةً عريضة حاول بها أن يزيحَ القلقَ من داخلى وهو ينظر إلىّ قائلا:

– الحلم .. الحلم فى التغيير.. كل واحد من اللى انت شايفهم جوّاه حلم كبير، بس فيه إيد أكبر منه ومن حلمه بتحاول تقتل الحلم ده، لكن هُمّه أجمل ما فيهم إصرارهم على الحلم .

وتركنى سليمان وانتقل إلى مجموعةٍ أخرى من الأصدقاء الذين كانت الطاولةُ هى ما يجمع بينهم، وقفَ إلى جوار أحدِهم ونظر إلى الطاولة وأشار إلى لعبةٍ ما وسرعانَ ما تحول الهدوءُ حول الطاولةِ إلى عاصفةٍ من الاحتجاج على تدخل سليمان الريس فى اللعبة،

ويضحك سليمان ويترك العاصفةَ التى أثارها بإشارتِه العابرة.

ويتجه إلى رجُلٍ كبيرٍ فى السن يجلس منفردا وهو يدخن الشيشة، وجلس سليمان إلى جواره وأخذ سليمان يتحدث والرجُلُ يسمع ويجادل سليمانَ فى بعض النقاط التى يقولها، ويستعيد سليمانُ الحديثَ .. والرجلُ يلتفت إلى سليمانَ بهدوءٍ و ثقةٍ ويقول كلمةً أو كلمتيْن .. ويواصل سليمان الريس الحديثَ بينما الرجل صامتٌ منصِت إلى ما يقوله سليمان وهو يدخن الشيشة، أخذتُ أتأمل ملامح الرجل، سنوات تزيد على السبعين وقوة قد خارت مع الأيام والسنين، ومع ذلك ما زال هناك فيضٌ من قوةٍ يعينه على مجاراة سليمان الريس فى الحوار الذهني الذى يدور بينهما..

وأطلتُ النظرَ إلى الرجل ومِن خلال ابتسامةٍ باهتةٍ ارتسمت على وجهه لإحدى تعبيرات سليمان التى قالها له أدركتُ معنى الحلم الذى أشار إليه سليمان منذ قليل .. نعم إنه هذا الأمل المرسوم على وجه هذا الرجل على الرغم من سنوات عمره المديد، إننى أشعر بالأمل ينبتُ مِن داخله وتكاد تتحدث به ملامح وجهِه، نعم .. إنه الحلم فى حياةٍ أفضلَ .. لا أعرف كيف كان هذا الرجل يعيش قبلا، ولا كيف يعيش الآن، لكنه مِن المؤكد فى هذا الركن البعيد

وهذه الزاوية التى لا يشاركه فيها أحدٌ سوى سليمان الذى هبطَ عليه .. مِن المؤكد يحلم بأن الحياة – حياته – كانت تستحق أفضلَ مما آلتْ إليه وهو ما زال يحمل هذا الحلمَ بداخله.

انصرفتُ عن الرجلِ وسليمانَ وأخذتُ أتابع الوجوهَ الجالسة .. وجوه شابة سواءٌ أكان أصحابُها صغارا أم كبارا .. ذكورًا أم إناثًا .. الجميع يحمل ملامحَ الشباب، وتُجسِّد لى المعنى الذى قاله سليمان، إنه الحلم بالأفضل.. هذا هو ما يَجمَع هؤلاء، وبالرغم من اختلاف أعمارهم وبالتأكيد اختلاف توجهاتهم الفكرية الواضحة لكل ذى عينٍ إلا أن هذا الرابطَ كان يَجمع الجميعَ

أَخرَجنى مِن أفكارى جلوسُ فتاةٍ إلى الكرسي المجاور لى، لم تنظرْ إلىَّ واكتفتْ بأن ألقتْ تحيةً قصيرة ثم جلستْ، طلبتْ كوبًا من الشاى وشيشة، وبينما هى فى انتظار المطلوب أخرجتْ عدةَ أوراقٍ من حقيبة يدِها وراحت تدوِّن فيها بعض الكلمات، كنتُ أنظر إليها من طرفِ عينى محاذرًا ألا أضايقَها ولكنها ما إنِ انهمكتْ فى شرب الشيشة حتى كان الدخانُ الصادر يحول بين رؤيتى لها بوضوح من طرف العين..

ويبدو أنها شعرتْ أن الدخانَ يضايقنى فنظرت ناحيتى معتذرةً ثم أدخلَتِ الأوراقَ فى الحقيبة واسترختْ فى جلستها وأخذت تشرب الشيشة فى نهمٍ وهى تنفث الدخانَ إلى أعلى ناظرةً إلى السماء، وجهُها لم يكنْ يحمل ملامحَ مصريةً خالصة، على أن ملامحَها أيضًا لا تشى بكونها أجنبية، أخذتُ أتأمل تفاصيلَ الوجهِ المرفوعِ إلى السماء وأتامل دقةَ هذه الملامحِ حتى إذا شعرتْ هى بأننى أتأمل تفاصيلَها تشاغلتُ عنها بالنظر إلى الرجُلُ الذى يعمل فى البدروم إلى جوارى وهو يصنع بعضَ الأحذية ..

وفى محاولةٍ منِّي لصرفِ نظرِها عنِّي تابعتُ الرجُلَ وهو يصنع الحذاءَ بكل جديةٍ وأخذتُ أتأمل حركةَ يديه وهو يخيط القالبَ الموضوع عليه جلد الحذاءِ فى النعل الذى أَحضره لهذا الغرض، وأخذتُ أتأمل الحركةَ التى يقوم بها بالمِغراز لكى يوسِّعَ مكانًا للإبرة كى تدخل بالخيط فى هذه الفتحة، واستغرقنى عملُ الرجلِ تمامًا وأدركتُ لوهلةٍ أن هذه الصناعةَ لم تعد موجودة، وأننا اكتفينا بالأحذيةِ التى تُصنَع بالماكينات، والتى سرعان ما حلتْ محلها الأحذيةُ الصيني التى شوهت حركتنا، وتذكرتُ طفولتى وكيف كان والدي يأخذنى إلى محل تفصيل الأحذية، وتذكرت الرجلَ الذى

كان يأخذ لى المقاسَ بقطعةٍ من خيطٍ ثم يرسم شكل قدمى على ورقة كارتون، ورغم أن كل شيء كان يبدو مبشِّرًا حينَها إلا أننى تذكرتُ الألمَ الذى كنتُ أعانيه دومًا عند لبْسِ أي حذاءٍ جديد، فقدْ كان الرجل يقوم بصنعه بمقاسٍ أقلَّ مِن رِجْلي دائمًا على اعتبار أن الحذاءَ سوف يتسِعُ مع المشي ..

كانت في ذهني كل هذه التفاصيل وأنا أتابِع عمْلَ الرجلِ، وأفقتُ منها على صوت سليمان الريس وهو جالسٌ إلى جوارى وتلفَّتُّ حولى باحثًا عن التى كانت تجلس إلى جوارى تدخن الشيشة .. أين ذهبت؟ وكيف اختفتْ بهذه السهولة؟ ولماذا لم أشعر بها؟ يبدو أن تفاصيلَ طفولتى مع الحذاء أخذتنى منها فلم أشعر بها حين غادرتْ..

أمضيتُ المساءَ مع سليمان، كنا نسير من شارعٍ إلى شارع وهناك رذاذٌ خفيفٌ من المطر يتساقط فوقَنا أحيانًا، كانت ذلك مبعثَ سرورٍ بالنسبةِ إلىّ إلا أن هذا دفعنى إلى أن أسألَ سليمان ..

– هوّه انت إزاي خرجت من وسط المعركه اللى كانت فى ميدان رمسيس سليم ؟

ابتسم سليمان كالعهدِ به ..

– شوف .. انت عارف اللى فيها .. أول ما يبتدى الضرب هتضرب، وبعدين تتضرب .. وتفضل تتضرب لمّا يبان لك اصحاب، وبعدين تتحط فى عربيه وتتعرض على النيابه .. أول حاجة النيابة حتعملها هتفرج عنك.. أنا بقى أول ما بدأ الضرب .. نطيت جوّه العربيه .. وأهو أنا كده كده هاركب العربيه يبقى إيه لزومة الضرب بقى؟ وبعدين انت هتضرب مين؟!! دول عساكر غلابه.. صحيح الواحد فيهم يقدر يقتل واحد وهو بيضربه، لكن لو حسبتها .. دول بينفذوا أوامر .. وغلابه .. الجهل عامي عينيهم .. إنما أنت ..

وحكيتُ لسليمان ما حدثَ معى .. وكيف حاولتُ الوصولَ إليه والضربَ الذى تعرضتُ له على يد الضابط .. والليلة التى قضيتُها وأنا أظن أنه مات أو أصيب .. وكل هذه المشاعر التى مرتْ على .. وشعورى بأننى خذلتُه .. ويبدو أن سليمان أشفقَ علىَّ من هذا الشعور فنظر إلى مبتسِماً ..

– فى المرة الجايه ابقى أعمل زيى، أول ما يبدأ الضرب اهرب .. ليه بقى؟ احنا مهما كان عددنا لا معانا سلاح ولا حتى حته خشبه

ندافع بها عن نفسنا.. يبقى الواحد يقول اللى هوّه عاوزه.، لكن ساعة الضرب اجرى؛ لأنك لو وقفت مافيش غير حاجه واحده بس .. تموت.. إنما احنا لو معانا الناس اللى فى الشارع كلها ماحدش هيقدر يموّتنا.. ساعتها بس نقدر نقف ونقاوم .. محدش يقدر يقتل مصر كلها .. إنما عشرين ثلاثين واحد.. ولا حتى مِيه ولا مِتين.. سهل تتضرب وأسهل كمان إنك تموت، علشان كده أنا بأقول أحافظ على نفسى، مش خوف من الموت ما انا عايش وسط الميّتين لكن أنا حاسس إن ليّه رساله، ويوم ما اقدر أوصلها ساعتها بس مش هاهرب من الضرب، لا ها اقاوم .. ها اقاوم بس وأنا عارف إن فيه حاجه هأقدر أغيرها..

كنَّا قد وصلنا إلى حيث المكان المفضل لدى سليمان .. نظرتُ إلى شكل الباب الخارجى ولا أدري لِمَ شعرتُ بأن هذا البابَ موجودٌ فى هذا المكان منذ قرون، ربما من العصر الفاطمى وربما مِن زمن المماليك .. ومَن يدرى؟ فقدْ يكون أقدمَ مِن ذلك بكثير، الأمرُ يحتاج إلى خبير آثارٍ لكي يحدد متى وضِعَ هذا البابُ على هذه البناية .. وقبلَ أن أفيقَ من تساؤلاتى حول عُمرِ الباب .. كان البابُ نفسُه قد انفتح ودخلتُ مع سليمانَ المكان .. رائحه البيرة

المعتقة، ودخان السجائر الذى لا ينقطع مثله مثل الحديث الدائر بين الجالسين، كل هذا دفعنى إلى أن أبحثَ عن مكان ..

كان سليمان أسرعَ منِّى ووجدَ لنا مكانا، جلستُ فيه بينما كان سليمان يواصل عادتَه التى لا تنقطع بالتنقل بين الجالسين والتحدث بصوتٍ عالٍ .. والسخرية من بعض الأوضاع، بينما أنا جالسٌ وحيدًا أشرب من زجاجات البيرة الموضوعة أمامى وأدخن سجائري بكل هدوء ومحاولا فهْمَ جزءٍ ولو بسيط مِن هذا العالَم الذى يتنقل خلاله سليمان، وأخذت أتأمل الوجوهَ .. إنها نفس الملامح التى كانت جالسةً منذ قليل على زهرة البستان، لم يكونوا نفس الأشخاصِ ولكنهم يحملون نفسَ السمات، إنهم يتشاركون مع الجالسين هناك فى نفس الحلم، وإنْ كان الذين هنا يحرصون على وضع الكوفية التى تحمل عَلَمَ فلسطين .. حمراءَ كانت أَم سوداء، المهم أنها مذيَّلة بعَلَمِ فلسطين ومع نهاية زجاجات البيرة وتهافُتِ الحديثِ عدتُ أدراجى مع سليمان ..

وفى الطريق الترابى المار بين المدافن تركتُ سليمان أمام باب الحوش الذى يسكن بداخله ورفعتُ يدي للناحية الأخرى بالسلام والتحيةِ دون أن ألقي نظرةً على حوش عبد البر، كان الوقتُ متأخراً

جدا والهدوءُ والسكينة يعمَّانِ المكان .. واصلتُ المسيرَ حتى وصلت إلى باب الغرفة التى أسكنها واستسلمتُ للنعاس والخدرِ بفعل البيرة .. وتداعت إلى رأسى الأفكارُ .. لكنَّ خاطرا وحيدا سيطَرَ علىَّ

المرأةُ الجالسةُ خلف طشت الغسيل كاشفةً عن فخذيها وساقيها، وبالرغم من أننى رأيتُها بعد ذلك بالقميص الأحمر الشفاف .. إلا أن الجلسةَ الأولى أو لنقُل اللقطة الأولى كانت هى المسيطرة علىَّ وأخذتُ أتأمل جلستَها .. وكيف تتكبُّ بكل هذه القوة على هذه الملابس؟ وكيف رفعتْ رأسَها إلىَّ لتنظر ثم تمسح عرقَ جبينِها براحة يدِها وتعاود العمل كأنها لم ترني .. مِن المؤكد أنها رأتنى .. نعم مِن المؤكد أنها أيضًا تأملتْ وقفتى ورغبتى فيها، بل من المؤكد أنها شعرتْ بذلك، نعم إنها تكِنُّ لى نفس الشعور الجارف بالرغبة، أكاد أشعر بها .. أكاد أشعر بأنفاسها تقترب مِن أُذُني..

التفتُّ إلى سريرى فإذا هى جالسةٌ مسنِدة رأسَها إلى الحائط فى دلالٍ كاشفةً عن ساقيها وفخذيها، اعتدلتُ وجذبتُها فمالتْ نحوي، غبتُ معها فى قُبُلاتٍ عميقةٍ وتحسستُ سائرَ أجزاءِ جسدِها بينما هى لا تمانع .. كانت هى فى أشد الاحتياج مثلما أنا فى أشد الاحتياج، وطالت لحظاتُنا مع بعضنا البعض كان فيها الكثير من

المتعة والكثير من الإثارة، والغريبُ أننا لم نتبادلْ أيَّ جملةِ حوار .. كان حوار الجسد هو اللغة التى أتقنَّاها فى هذه الليلة..

وحين شعرتُ بالارتواء استلقيتُ على السرير ناظراً إلى أعلى، مددتُ يدى محاولا تحسُّسَ جسدِها لكنها لم تكن إلى جوارى، التفتُّ فلم أجدها على الفراش .. نظرتُ إلى الحائط فوجدتُه مكانَه .. ويبدو أنها مثلما أتت من الحائط عادت منه ثانيةً، تُرَى ماذا تفعل الآن؟ ربما تبحث عنِّى إلى جوار حائطِ غرفتِها .. بينما عبد البر يغط فى شخيره .. مِن المؤكد أنه يُحدِث صوتاً أثناءَ نومِه، بل لا أُغالي إذا قلتُ إنه ربما أيضًا يُخرِج ريحًا كثيرا وهى لهذا ربما كانت مستيقظةً فى هذه الأثناء تبحثُ عنِّى إلى جوارِ الحائط

obeikan.com

(٧)

لأيام طوالٍ ظَلَّ إحساسٌ بالذنبِ يخايلنى كلما قابلتُ أم آمال أو تحدثتُ إليها، وكنتُ لهذا ما إنْ أبدأ حديثًا إلا أُسرِع بإنهائِه، وصارت مقابلاتى لسليمانَ وخروجُنَا والتجول فى الأماكن المعتادة مِن ضمن عاداتى .. على أننى حرصتُ على أن أكونَ موجوداً فى اليوم الذى حددتُه لنفسى فى العمل كى أوقِّعَ فى دفتر الحضور للأسبوع الذى انقضى، وفى اليوم المحدد لصرف الراتب الشهرى أقِفُ أمام ماكينة الصرف فى البنك لأستلم راتبى وأعود فرِحًا إلى «مقهى كتكوت» لأسدِّد لصلاح الإيجارَ الشهرى ثم أتِّجه إلى الحوش وأعرِض ما معى من نقودٍ على أم آمال ..

كانت دائمةَ الرفض، وكثيرا ما بذلتْ مجهودًا فى ترتيب غرفتى أو تحضير طعامى، وكثيرٌ مِن هذا الطعام كانت هى التى تتولى أمرَ

إحضارِه، ولكنها دائما كانت ترفض أن تتقاضى منِّى أي نقود .. كنتُ أتجاذب معها الحديثَ فى أمورٍ عدة، نسوان الحوش، المرأة البدينة التى تسكن بالدور العلوى، حياة سكان المقابر .. ولكننى لم أحاول التطرقَ من بعيدٍ أو قريبٍ إلى حياتها الخاصة، والأكثر غرابة أننى لم أنظر يوما داخل غرفتِها غير أن خيالى لم يذهبْ بعيداً، ففى الأغلب الأعم ستكون مثل غرفتى، وربما كانت صورةً طبْقَ الأصلِ منها، أليست هى التى رتبت غرفتى على هذا النحو؟ وظلتْ علاقتى بأم آمال تتواصل لا يجمعنا إلا إحساسٌ إنساني بالغربة ..

كنتُ أحكى لها كل تفاصيل حياتى الماضية، لكن هناك بعض الأشياء التى كانت تحدث معى فى تلك الأيام ، كنت أحرصُ ألا أرويها خصوصًا ما يمس العلاقةَ بالنساء وعلى وجه الخصوص زوجة عبد البر حتى لو زراتنى فى أحلامى، كنتُ حريصا على عدم إثارة غضبِها، وكانت هى تجد لذةً كبرى حين أجلس إلى جوارها لتناول فنجان القهوة فى ساعة عصارى .. غير أننى لم أكن الوحيدَ الذى يجلس فى هذا المكان..

فكثيرًا ما رأيتُ عندها سيداتٍ أو رجالا يجلس بعضهم فى نفس

المكان، والبعضُ الآخر يجلس على الأرض أمامها، كان معظمهم يأتى إليها للشكوى من سوء معاملة نسائهم لهم، والنساء فى الغالب كُنّ يشكين من قسوة الرجال فى معاملاتهم وشدتهم سواء فى مصروف البيت أو على الفراش، كانت هى مَن يقوم بحل الخلاف . أحيانا يستدعى منها ذلك رفْعَ الصوتِ وأحيانا أخرى كانت تلوِّح بالشبشب الذى فى قدمِها فى وجه محدِّثِها، غير أنها فى أحيانٍ ليست قليلةً كانت تقفز مِن على الكرسى الذى تجلس فوقه لتجلس فوق محدِّثِها وتوسِعه ضربًا وسبابًا ..

لم يكن هناك فارقٌ أن يكون المضروبُ رَجُلاً أو امرأة . إنها حين تأخذ قرارَ الانقضاضِ لا يمنعها أى شى، ويكون الضربُ ساعتَها هو مقدمة لعقابٍ من نوع آخر كإلزامِ إمرأةٍ بحُسنِ معاشرةِ زوجِها .. أو إلزامِ رجُلٍ بزيادةِ مصروف البيت من أجل زوجتِه وأولاده، وفى بعض الأحيان كانت الأمور تتطور إلى إجبارِ رجُلٍ على تطليق امرأةٍ تزوَّجَها على زوجتِه، لكنها دائمًا وفى كل الأحداث المشابهة سواء أكانت تلك التى شاهدتُ كثيرا منها، أم تلك التي حكت هى لى عن بعضها الباقى، دائمًا كانت تَخرج منتصرةً بعدَ أن تَفرِض رأيَها على الجميع، الذى كان يدهشنى هو هذه الاستجابة الطائعة لقراراتِ أم

آمال .. الجميع كانوا ينفذون قراراتِها بكل حذافيرها دون أى نقاش وذلك طبعًا بعد وصلة الضرب التى تنال كل مَن يتجرأ على الحق من وجهة نظرها..

فى ذلك العصرِ الذى كنا فيه نحتسى القهوةَ التى تعدها بيدِها وجدنا سليمان الريس واقفًا أمامنا..

دعته هى للجلوس ولكنه اعتذرَ بأنه سيضطر للسفر إلى أسوان وأن هناك مَن ينتظره على «قهوه كتكوت»، ولما سألتُه عن سبب سفره أجابنى بأنه مدعو إلى حضور مؤتمرٍ أدبي لمده أربعة أيام سيتم تكريمُه خلالها، وهى بلا شك مناسبةٌ لا تستدعى الرفض .. ودَّعتُه وكذلك سلَّمَ على أم آمال وغادرنى سليمان الريس .. كنتُ قد بدأت أشعر بالاعتيادِ والألفةِ لصحبة سليمان وكذلك تناول القهوة مع أم آمال غير أننى عندما نظرتُ إليها بعد أن ذهب سليمان وجدتُها ساهمةً تنظر إلى الفراغ وكأنها فقدتْ عزيزًا لديها، غير أننى لمّا نظرتُ فى الناحية التى كانت تنظر إليها وجدتُ حشدًا من الرجال يحملون نعشًا وهُم داخلون به الى أحد الأحواش التى فى الطرف الأخر من الشارع ..

كان هذا المنظرُ مِن كثرةِ ما رأيتُه فى الأيام الأخيرة منذ سَكَني هنا قد بدا لى من المَشاهد العادية كمشهد سيارةٍ تعبُرُ الشارعَ، أو امرأةٍ تسير حاملةً طفلَها، أو رجلٍ يتابط ذراعَ زوجتِه .. لكننى حينما نظرتُ إلى أم آمال ثانيةً قلتُ لنفسى ربما تُذَكِّرُها مَشاهِدُ الجنازاتِ بأشياءَ عزيزةٍ عليها، أو جنازات فقدتْ فيها أحبةً، لهذا أسرعتُ بالخروج من باب الحوش متوجهًا إلى الناحية الأخرى ناحية قهوة كتكوت، وعندما مررتُ على حوش عبد البر لم أرفعْ يدي بالتحية ولم أنظرْ ناحيةَ الباب مع أن الصوتَ العالي للأغنيةِ الخارجةِ من باب الحوش كان إعلانًا عن وجود السيدة زوجة عبد البر .. وربما كانت تغسل أيضًا خلف الطشت، غير أن التناقُضَ ما بين حالة هؤلاء الذين يحملون النعشَ منذ لحظاتٍ فى الشارع المجاور وهذه الأغنية الراقصة فى هذا الشارع كان كبيرا

كل هذا التناقض دفعنى فى اتجاه «قهوه كتكوت «، لم يكن صلاح جالسًا فى هذه الأثناء ولا المعلم عبد البر، وأدركتُ لوهلةٍ أن عبد البر .. لا بُد أن يكون فى الجنازة التى فى الشارع الآخر، أليس هو أحدَ التُّرَبية؟ وربما كان واضعًا يدَه على هذا الحوش، ولهذا فإن المرأةَ فتحت البابَ وفتحت المذياعَ بهذا الصوت العالي ولِمَ لا؟

فإجراءاتُ الدفنِ تأخذ وقتًا طويلا .. ثم إن الجنازةَ حين تنتهى ويتم دفنُ الميتِ فإن عبد البر لا يعود إلى البيت على الفور ..

مِن المؤكد أنه يبقى هناك لبعض الوقت لرشِّ الماءِ أمام القبر ومحاولةِ زرْعِ بعض الصبارات، وهى أمورٌ تأخذ وقتًا طويلا فى العادة، ناهيك عن الوقت الذى يضيع فى تحصيل حساب الدفن. أهل الميت يقومون بسداد مبلغٍ من المال .. وينصرفون بعد أن يوصوا عبدَ البر وأشباهَه بالحفاظ على المقبرة إكرامًا للراحل الغالي .. ولكن عبد البر ورجاله وكذلك مَنْ هُم على شاكلتِهم يختلفون فى أجر من أعلى من أجر من . الذى قام بفتْحِ المقبرة، والذى قام بإغلاقها، والذى قام بإنزال المرحوم إلى قبره .. كل هذه التفصيلات تأخذ وقتًا طويلا من النقاش ..

وأحيانًا يمتد النقاشُ إلى أن يجدوا أنفسَهم على «مقهى كتكوت» وهُم ما زالوا فى حيرةٍ ونقاش وعدم رضى، كل واحدٍ يسأل منهم عن نصيبه .. وقبل أن تدب الفُرقةُ بينهم تجد أن كتكوت قد أحضر لهم الشايَ والمعسل وقام بوضع الحشيش على حجارة المعسل؛ ليتناوبوا الشربَ ليكتشف كل منهم أن ما أخذوه من أهل المرحوم هو ما دفعوه تماما لكتكوت ثمنًا للمعسل والشاى والحشيش، وكانت

جلستُهم هذه تنتهى إلى سؤالٍ لم يجدوا له إجابةً وهو كيف يعرف كتكوت قيمة ما أخذوه حتى يضع أمامهم بضاعةً مساويةً للقيمة؟ وعندما يطلبون المزيد يجدونه يقول لهم

«كفاية كده على قد اللى معاكم »

كانت هذه الجلساتُ - التى تمتد لساعاتٍ طوالٍ منذ الإخطار بحضور ميتٍ وقيام التُّرَبي بالتوجه إلى المقبرةِ وفتحِها انتظاراً للوافد الجديد وحتى ساعات انتهاءِ الحساب على «قهوه كتكوت» - هى الأوقات التى تجدها زوجة عبد البر مناسبةً للغسيل خلف الطشت كاشفةً ما استطاعت، جاذبةً لكل مَن كان له مِن ذلك نصيب ..

وخطَرَ لى أنه ربما يكون هذا نصيبي مِن هذه الجنازة التى لا أعلم شيئا عن صاحبها .. وبالفعل عقدتُ العزمَ على أن أتجهَ مباشرةً للسؤال عن عبد البر وبعد ذلك يكون ما يكون، إلا أننى ما إنْ وقفتُ حتى وجدت صلاح أمامى .. حاولتُ تحيتَه والانصرافَ لكنه أصرَّ على أن أجلس معه خصوصًا وهو يعلم أن سليمان قد سافر إلى أسوان منذ قليل، فإلى أين أتجه فى مثل هذه الساعة؟ حِرتُ وفكرتُ

فى التصريح لصلاح بما أنوي فِعلَه فهو فى مثل عمرى تقريبا، وربما لا يمانع، وربما يشجعنى .. ولكن صلاح استوقف الكلماتِ على طرف لسانى وهو يقول:

– اصل أنا كنت بادور عليك عاوزك فى موضوع، وسليمان قال لى ما حدش هيقدر يفيدك غير سعيد ..

وأيقنتُ أن خطتي لم تفلح، وأن كل ما فكرتُ فى الحصول عليه قد ذهب سُدىً، ولكننى واسيتُ نفسى بأن الأيامَ القادمةَ ربما تحمل لى من المتعة الكثيرَ خصوصًا أن الأمواتَ يأتون إلى هنا كثيراً ، وهذا يعنى انشغالاتٍ كثيرةً لعبد البر، وربما فى المرة القادمة أكون أكثرَ استعدادًا .. وعقدتُ عزمى على أننى فى الجنازة القادمة سوف أذهب مباشرةً إلى حوش عبد البر، وهكذا أقنعتُ نفسى بأن القادمَ أحلى، ولا أدري لماذا تذكرتُ كلام سليمان الريس .. الحلم .. الحلم بإن اللى جاى يبقى أحسن .. وهكذا روَّضتُ نفسى على الفكرة واستجبتُ لنداء صلاح لى بالجلوس ..

فتَحَ صلاح أمامي مجموعةً من الأوراق مكتوبةً باللغةِ الإنجليزية، وفهمتُ منه أنها خطاباتٌ واردةٌ إليه من صديقةٍ أمريكية كانت قد

أتت إلى المقابر منذ عامينِ لتصوير بعض اللقطات التذكارية، وصلاح شأنه شأن كل المصريين كريمٌ ومِضياف، ومِن شدة كرمِه وحرصِه على تقاليد الضيافة فقدِ استضاف هذه الأمريكيةَ فى غرفة والدتِه لمدة ثلاثة أيام، وقد أكرمتها والدتُه الراحلة شدةَ الكرم واتفقا بعد ذلك بواسطة لغةٍ مشتركة ما بين الإشارة والإنجليزية والعربية على أن يتراسلا، وكَتبَ لها صلاح عنوانَه وكتبتْ هى له عنوانَها..

وكان صلاح يرسِل لها الكثيرَ من الخطابات، وهى بالمِثل كانت ترسل له خطاباتٍ ودعواتٍ للزيارة. ولكنَّ هذه الخطاباتِ والدعواتِ لم تكن تصل إلى صلاح حيث إنها كانت تصل إلى مقابر الإمام الليثي وليس مقابر الإمام الشافعي، ولأن البوسطجي ينحصر عملُه فى تسليم الخطابات فكان يسلِّمها إلى مقهىً موجودٍ فى أول الإمام الليثي، ويأخذ صاحبُ المقهى الخطاباتِ ويضعها فى صندوق خلفَه حتى يأتى مَن يسأل عنها، وفى هذا الصباح كان صلاح يجلس بالمصادفة على هذا المقهى الذى اعتاد أن يجلس عليه فى أيامٍ كثيرة، ولكن الصدفة جمعته بساعي البريد الذى كان يسلم الخطابات إلى صاحب المقهى وتبرَّمَ صاحبُ المقهى من كثره

الخطابات حتى أنه سبَّ صلاح السمان صاحِبَ الخطابات الذى لا يحضر لاستلامها بصوتٍ عال ..

ولفتَ ذلك نظرَ صلاح الذى تحاوَرَ مع صاحب المقهى والساعى وعرَفَ حقيقة الموضوع، وهكذا عادت إلى صلاح خطاباتُه وعاد إلى صاحب المقهى هدوءه ونقَدَ صلاح ساعيَ البريد مبلغاً لكى يأتى بالخطابات بعد ذلك إلى مقابر الإمام الشافعي

واستراح الجميعُ وبدأت مشكلة صلاح فى ترجمة هذه الخطابات التى كان يعوِّل كثيرا على سليمان فى ترجمتِها له، ولكن سليمان الريس كعادته معي لم ينسَ حتى وهو مسافر إلى أسوان لتكريمِه على مسيرته الشعرية أن يرسل لى صلاح ويوصيه بألا يطَّلِعَ غيرى على هذه الرسائل حتى لا يعرف ما بداخلها مَن لا يؤتَمَن وأضمرتُ فى نفسى ذلك من سليمان الذى ضربَ توقعاتى بما كنتُ أُمَنِّي النفسَ به داخل حوش عبد البر، وفى نفس الوقت توريطي فى هذه المشكلة التى يعلم هو أكثر مِن غيره أننى لا أجيدُ الإنجليزيةَ إلا بصعوبة، ولكن صلاح الذى لم يكمِل تعليمَه الابتدائي كانت له وجهةُ نظرٍ أخرى وهى أننى كما قال له سليمان أحسن واحد يفيدك فى المهمه دي .. وهكذا شعرتُ بأننى لو رفضتُ طلبَ صلاح

فربما أكون قد غامرتُ بترك الغرفة التى ليس لى أى ملجأٍ سواها، وهكذا وجدتُ نفسى أقلِّب فى الأوراق محاولا تجميعَ ما أعرف من الأبجدية ومِن كلماتٍ كنت قد نسيتُها تمامًا من أيام الدراسة..

لم يستغرق منِّى النظرُ إلى الأوراق سوى ثوانٍ معدودة أوضحتْ لى جهلى التامَّ بما هو موجودٌ فيها، وأوضحتُ لصلاح أنه يلزمنى قاموسٌ لترجمة بعض الكلمات وأوهمتُه أنها كلماتٌ غير متداولةٍ فى لُغتِنا الإنجليزية؛ لأننا ندرس إنجليزي إنجليزي، أمّا هذه فهى إنجليزية أمريكية، وبالفعل أحضرتُ القاموسَ وبدأت رحلة فك الطلاسم والألغاز والشفرة المكتوبة بها الكلمات، بدأتْ هذه الجلسات فى الحجرة عندى وصلاح يقوم بكل ما يلزم، يعد الشاى والطعام، يحضر السجائر، وأُم آمال تساعده فى هذه المهمة التى بدت لها مهمةً مقدسةً على الرغم من أنها كما صرَّحتْ فى إحدى المرات لم تُحِب هذه البنتَ حين شاهدتها هنا من فترة ..

– بت مش كويسه كده مِن جوّه، وجوّاها خبث الدنيا...

لكن هذا لم يمنعها من تقديم المساعدة حتى استطعتُ أخيراً ما بين يومٍ وليلةٍ ترجمةَ هذه الأوراق التى أنهكتنى تمامًا حتى خارت

قواي ووجدتنى أنسحب وأنا أسترخي على طرف السرير تاركًا الأوراقَ المكتوبةَ بالعربية لصلاح ليقرأ ما فيها وأُم آمال واقفةٌ تستمِع له بينما هو يقول: عزيزى صلاح أشكرك على هذه الأيام الرقيقة التى قضيتُها بينكم. واستولَى النعاسُ علىَّ فلم أسمع بعد ذلك حرفًا واحدًا.

فزعتُ مِن رقدتى على صوتٍ عالٍ وشجارٍ يكاد ينشبُ بين أُم آمال وصلاح. انتبهتُ واقفًا محاوِلا الفهمَ غيرَ أن أُم آمال ألقتْ بما فى يد صلاح مِن أوراقٍ على أرض الغرفة وغادرتْ وهى فى قمة الغضب، ولم أفهم من كلامها سوى إسرائيلية ما عادش ناقص إلا ده كمان ... وحاول صلاح أن يلحق بأم آمال بينما هو يجمع الأوراقَ مِن على أرض الغرفة، استوقفتُه لأفهمَ .. كان قد جمَع الأوراقَ إلى جواره عندما فهمتُ القصةَ كاملةً، كانت الفتاةُ التى استضافها صلاح فى غرفة والدتِه تلك التى أقيم بها الآن .. واسمها «كيت» قد أرسلتْ لصلاح هذه الخطاباتِ ردًّا على رسائله التى كان يرسلها لها

فى البدايةِ وجَّهتْ إليه واجبَ الشكر والتحية ثم بدأت بعد ذلك تعرِّفه عن نفسها بأنها مراسِلةٌ صحفية فى إحدى الجرائد الإيطالية واسمها «كيت» وتعيش متنقلةً ما بين بلدِها الأصلى حيث ولِدتْ في

تل أبيب، وبلدِ والدِها واشنطن، وبلدةِ والدتِها باليرمو فى إيطاليا، وهى وقد بدأت تشعر ببعض العاطفة تجاه صلاح فإنها تدعوه إلى لقاءٍ عائلي يجمعها بوالدها ووالدتها فى المكان الذى سوف تستقر حياتُها فيه « تل أبيب».

وقد وعدتْ صلاح بأن تجد له عملا إذا رغِبَ فى البقاء معها، وبذلك يمكن لهما الإقامه معًا فى بلدتها « تل أبيب « أو أن تعود معه إلى القاهرة تمارس عملَها الصحفى من القاهرة كمراسلةٍ للصحيفة الإيطالية، وفى انتظار موافقة صلاح لتحديد موعد تلك الزيارة والبدء فى اتخاذ الإجراءات الملائمة من استخراج تأشيرة دخول أو توجيه الدعوة أو ما يلزم فى مثل هذه المناسبة، كانت هذا هو ما أمكن الخروج به من هذه الأوراق التى قمتُ أنا بترجمتِها، لكن ثورة أم آمال كون البنت أو الفتاة كيت إسرائيلية لم يكن لها ما يبررها فى نظر صلاح، فما الذى يدفع أم آمال إلى هذه الثورة؟ ولماذا غضبتْ لكون كيت إسرائيلية أو أمريكية أو أى جنسيةٍ أخرى؟

وأثار صلاح آلافَ الأسئلةِ وهو لا يدرى لماذا تغضب أم آمال وقد جاءه الفرَجُ أخيرًا فى دعوةٍ للسفر إلى بلادٍ أجنبية علَّه يجد

فيها بحبوحةً من العيش ومشاهدةِ ما يراه فى الأفلام الأجنبية التى يعرضها تليفزيون قهوة كتكوت يوميا، مِن ناحيتى فقدْ خُيِّلَ لي أنني فهمتُ سببَ ثورةِ أم آمال حيث ربطت على الفور بين الكوفية التى يرتديها سليمان الريس والمُذيَّلة بعَلَم فلسطين وجلسات تناول القهوة فى ساعة عصارى مع أم آمال، ولا بُد أن سليمان قد نقَلَ لأم آمال بعضا من أفعال اليهود فى فلسطين ومع العرب بشكل عام مما وجَّهَ سلوكَ أم آمال إلى ناحية عدائيةٍ لكل ما هو إسرائيلي، وقلتُ فى نفسى ربما كان هذا هو ما شكَّلَ هذا الوعيَ لديها ودَفَعَها إلى هذا الغضب والثورة على المكتوب فى الخطابات، غير أننى ما كدتُ أفتح هذا الموضوعَ نفسَه مع أم آمال حتى بادرتنى بالقول:

– يهود..؟! دول ملعونيين فى كل كتاب.

وهكذا أدركتُ أن سليمان لم يكن هو الذى شكَّلَ هذا الوعي داخل أم آمال ولكنه «العقل الشعبي الجمعي» الذى يرفض كل ما تتوارثه الأجيالُ عن سيطرة اليهود على المالِ والسلطةِ والأفعال اللاإنسانية التى حفلتْ بها كُتُبُ التاريخِ، وبالتالى حفظها الوعي الشعبي فى داخل الوجدان الإنسانى للبشر فى حالةِ رفضٍ لهذه الممارسات وانتقلت عبْرَ الأجيالِ حتى وصلت إلى أم آمال..

وقد بذلتُ جهدًا فى هذه الليلة حتى استطعتُ أن أجعلَها تغيِّر موقفَها من صلاح خصوصًا بعد أن أَخرَج صلاح من رأسه فكرةَ السفر إلى تل أبيب أو إلى أى مكانٍ آخرَ ومزَّقَ الخطاباتِ أو على وجه الدقة الأوراقَ التى ترجمتُ له فيها الخطاباتِ، فقدْ كانت أصول الخطابات ما زالت فى غرفتى وأقسَمَ أنه لن يراسل هذه الفتاةَ مرةً ثانية. وغادَرَنَا صلاح وقد تركنى إلى جوار أم آمال التى ما إنْ صنعت القهوةَ حتى أفصحتْ لى عن سبب عدائها لليهود الذى ظهر جليًا هذا اليوم، فبعد أن أشعلتْ سيجارتَها ونفثتْ الدخانَ بدأت تحكي لي حكايتَها من البداية .

فوالدُها هو أحد الجنودِ الذين ذهبوا لتحرير سيناء فى أكتوبر ١٩٧٣ وقتَها كانت هي جنينًا فى بطن أُمِّها .. واستُشهِدَ الوالدُ فى هذه الحرب .. وقد وضعتها أُمها بعد انتهاء الحرب بشهورٍ قليلة، لكن «حُمَّى النفاس» قضتْ على الأُم مما استدعى أن يأخذَها خالُها ليربِّيها وسط أولادِه، ولكنها ما إنْ أكملت السابعةَ من عمرها حتى أرسلها خالُها إلى الخدمة فى أحد البيوت لتساعده على نفقات الحياة كما كانت زوجتُه تقول دائمًا، وعاشت فى هذا المنزل تخدم لمدة خمسِ سنوات .

كانت قد بدأتْ تعي بعضَ الأشياء بالرغم من أنها لم تكن قد غادرتْ طفولتَها بعد، واقتربَ منها الجنايني الذى يقوم بزراعة حديقة المنزل الذى تعمل فيه وعرَضَ عليها الزواجَ على الرغم من أنها كانت ما تزال طفلةً، وهو كان قد تعدَّى الخمسين من العمر، وفرحتْ طفولتُها المبكرةُ لهذا الأمر خصوصًا أنها لم تعرف شيئاً عن خالها او زوجته أو أولاده منذ غادرتْ منزلَهم من سنوات بعيدة

وقد تزوَّجَها الجنايني بعقدٍ رسمي بعد أن قام طبيبُ الصحة بعمل «شهادة تسنين» لها أثبتَ فيها أنها كبيرةٌ وصالحةٌ للزواج، وأتى بها الجنايني إلى هذا الحوش إلا أنه كان يذهب إلى العمل ويعود إليها مرةً كل أسبوع. لم يقتربْ منها خلال هذه الفتره كرجُلٍ وامـرأة .. كان رجُـلا طيبًا وأراد أن يحمى طفولتَها من الخدمة الشاقة خصوصًا بعد أن عـرَفَ تفاصيلَ حياتِها وكيف استُشهِد والدُها وكيف استولَى خالُها على معاشها من والدِها وكيف ألقاها فى هذا المستنقع..

ويعود السببُ فى ذلك إلى أن هذا الجنايني نفسَه عملَ فترةً من حياته بالقوات المسلَّحة قبل أن يُسَرَّحَ منها عقِبَ حربِ اليمن ليخرج بعدَها ويعمل فى هذا المنزل، وكان بهذا كأنه يرد جميلا

إلى صديق أو لنقُل زميل سلاح ربما لم يلتقيا .. ولكنهما معا ربما واجها نفسَ الظروفِ والمصاعب، وإنْ كان الآخر استُشهِد فإنَّ على الموجود أن يحملَ الأمانة، وهكذا وبمنتهى الأبوةِ والحنان أتى بها إلى هذا الحوش وظَلَّ به إلى جوار أم آمال حتى كان أحد الأيام التى كان ذاهبًا فيها إلى العمل، وأخبَرَ الجناينى أم آمال بأن صاحبَ المنزل أو صاحب العزبةِ قد استحضَرَ خبراءَ إسرائيليين لتعليم المصريين فنون الزراعة .. وهذا أمرٌ يزعِجُه .. إذْ كيف سيعمل تحت إمرةِ إسرائيليين؟ وكيف له أن يَقبَلَ أن يعلِّمَه هؤلاءِ الزراعةَ التى هى فى دمِه ورِثَها عن جدودِه لسبعةِ آلاف سنةٍ مضت؟ عبَّرَ الرجُلُ عن مخاوفِه وترَكَها ومَضى إلى عمله

وعندما أعادوه إليها جثةً ملفوفةً فى كفن أخبَرَها بعضُ زملائه أنه تشاجَرَ مع أحد الخبراء الأجانب حول طُرُقِ الزراعة وحاولَ أن يضرب الخبيرَ بالفأس، فما كان من الخبير إلا أن صدَمَه بالسيارة وسارَ على جثتِه بِضعَ مراتٍ للتأكد مِن أنه قد مات، وفى نفس الوقت لإعطاء درسٍ لمن يحاول مِن الواقفين التصدى للخبير أو زملائه فى مراتٍ قادمة. هنا أدركتُ كم عانت أم آمال مِن هؤلاء الإسرائيليين الذين سلبوها مِن وجهة نظرها كل شىء، الأبَ وميراثَه والزوجَ،

وتركوها وحيدةً هنا فى غرفةٍ داخل أحد أحواش المقابر تواجه الحياةَ بكل ما فيها وهى لم تبلغ بعدُ عامَها الرابعَ عشَر..

كان هذا منذ ما يقرب من عشرين عامًا، لكن السؤال الذى ظللتُ أبحث عن إجابةٍ له ولم تُرِد هى الخوضَ فى تفاصيله كيف أمكَنَ لها وحيدةً أن تبقَى على قيد الحياةِ طيلةَ هذه الفترة؟ إضافةً إلى آلافِ الأسئلة الأخرى التى يمكن أن تتعلق بهذه الفترة .. الفترة التى كوَّنتْ أم آمال التى أراها الآنَ أمامى، لكنها انصرفتْ عنِّى بذهنِها وهى تشعل سيجارة، وأدركتُ أنها بعد ثوانٍ قليلةٍ سوف توجِّه نظرِها إلى الخارج فى انتظارِ ما لا أعرفه، وعندِها سيصبح الحديثُ غيرَ ذي جدوى. أخرَجَتْ أم آمال نَفَسًا من صدرها وتوجَّهَ بصرُها خارج الحوش..

وغادرتُها بعد أن تركتُ مفتاحَ الغرفةِ فى يدِها، تناولتِ المفتاحَ ووضعته فى صدرِها دون أن تلتفتَ إلىَّ، وأخذتُ أقطع الطريق الترابى الواصلَ ما بين الأحواش من ناحية وقهوةٍ كتكوت من الناحية الأخرى والذى يمُر أمام حوش عبد البر، غير أننى قبلَ أن أصل إلى حوش عبد البر مباشرةً شاهدتُ طريقًا فرعيًا يمر مِن بين الأحواش إلى الشارع الآخر فدخلتُ فى الطريق الفرعي،

واستدرتُ ناحيةَ مقهى كتكوت الذى أصبح قبالتي فى هذه اللحظة

الحياةُ فى مقهى كتكوت غيرها فى أي مقهى، فهنا كل الألعاب موجودة من الطاولة إلى الدومينو إلى الكوتشينة إلى السيجة، وهذا صحيح فأمامَ المقهى يرسم كتكوت على الرمال مربَّعًا ليجلس عليه الرجالُ ويضعون الطاباتِ ويلعبون السيجة ..

أمَّا بالداخل فهناك ماكينة بلاي ستيشن، وعلى بُعدٍ غير قليل منها يوجد تليفزيون دائمًا ما يعرض «أفلام البورنو» وله زبائنه الجالسون دائمًا أمامه، وتشعر وأنت تنظر إليهم أنهم جميعًا مصابون بالحُمّى من شدة احمرار وجوههم وآذانِهم وعيونِهم الشاخصةِ إلى التليفزيون ..

وزبائن المقهى من مختلف الطبقات .. فهناك أصحاب السيارات الحديثة جدا التى تدخل حتى تقف إلى جوار أحد الاحواش بجوار المقهى .. وهناك عمَّالٌ تعرفهم من ملابسهم، عمَّال يومية يحمل كل منهم « شاكوشاً وإزميلاً« مربوطيْنِ بقطعة من الكاوتش المطاط، وهناك خريجون بلا عمل، وكذلك التُّرَبية أو سكان المقابر .. والجميع يتشاركون فى اللعب أو التسلية أو الشرب،

ومقهى كتكوت يقدم جميعَ أنواعِ المشروبات، شاي، قهوة، حِلبة، نعناع، ينسون، قِرفة .. أو معسل تفاح وحشيش وبانجو، لكنه لا يقدم البيرةَ أو الخمور لأنها حرام.. وحين سألتُ المعلِّم كتكوت يومًا عن ذلك أجابنى:

-إلا الخمره يا بيه.. دي حرام واحنا فى وسط حُرمة الموتى، انت عاوزنا نروح من ربنا فين؟

ومضى كتكوت إلى حاله وظَل فترةً يعاملنى بجفاء، أجلس فيحضر لى المشروبَ أدفعُ حسابى وأغادر دون أن يتمنى لى السلامةَ، وظَل على هذه الحال عدة أيام لأننى تجاسرتُ وسألته هذا السؤالَ عن الخمر والبيرة .. ومع هذا التناقض الذى يعيش فيه كتكوت ومقهاه من شرب مخدرات ومشاهد أفلام جنس إلى تحريم الخمور واحترام حُرمة الموتى..

ظللتُ أعيش هذا التناقضَ الموجودَ فى المقهى بروَّادِه ومشروباته ولا أعترض خصوصًا أننى لستُ مدمِنًا لأى مشروب ولا أى لعبة .. يكفينى أن أجلس على الرصيف أراقب ما يحدث وأشرب الشاي.. وفى بعض الأحيان النادرة قد أشرب القهوة. كان المقهى فى هذا

اليوم مليئًا فأخذت كُرسيًا من الكراسي البلاستيك - وهذه غير الكراسي القش التى تمتلىء بها المقهى- وجلستُ إلى جوار أحد الأحواش فى مواجهة المقهى وأحضَرَ لى صبيُّ المقهى الشايَ الذى طلبتُه وجلستُ أتامل لعبةَ سيجا بينما أنا فى انتظار صلاح .

وأخذتِ اللعبةُ تتوالى هذا يفوز بدور ويعبِّر عن فرحته، والآخر يفوز ويعبِّر هو الآخر عن فرحته، وما بين دورٍ هنا ودورٍ هناك . نشبتْ معركةٌ بين اللاعبين والمتفرجين حول لعبة ما ، وهل أخطا اللاعبُ وحرَّكَ الطابةَ أَم أنه لم يلمسها من الأساس؟ وتحولت المعركةُ من معركةٍ بالأيدي أُدميتْ فيها بعضُ الأنوفِ إلى معركةٍ بالأسلحة البيضاء الخفيفة كمطاوي قرن الغزال ..

ونـزَفَ عددٌ من الموجودين أمامى إلا أن أحدَهم أسرع ناحيةَ إحدى الأشجار الجافة الهزيلة وأخـرَجَ مِن وسطها سيفًا وصاح صيحةً عالية لفتت أنظارَ الجميع، ورفَعَ سيفَه وأسرع فى اتجاهم، فأسرعَ البعضُ بالهرب وألقى أحدُهم بضعةَ كراسٍ من القش أمامَه فانكفأ عليها وسقَطَ على الأرض، فأسرع بعضُهم بضربِه بما معهم من أسلحةٍ بيضاءَ حتى تمكَّنَ أحدُهم من سَحبِ السيف من يدِه ورفعه إلى أعلى وغرزه بصعوبة داخل صدرِه وأخرَجَه وغرزه عدة

مراتٍ والرجُلُ مُلقىً على الأرض وتبدو منه ارتعاشاتٌ خفيفة ما لبثت أن هدأتْ تمامًا وحينَها أدركتُ أنه غادَرَ الحياة .

شعرتُ بالرعب وعدم القدرةِ على القيام بأي حركةٍ وأنا أرى هذا يحدث أمامى وتصورتُ أننى قد أصابنى الشللُ فى جميع أجزاء جسدي، إلا أننى شعرتُ بيدٍ تحاول رفعي مِن على الكرسي، التفتُّ فوجدتُ صلاح يساعدني على الوقوف..

– قوم انت قاعد هنا بتعمل إيه؟!! قوم معايا ..

وتبعتُ صلاح وأنا لا أشعر بأى إحساسٍ حتى وجدتنى جالسًا فوق سطوح الحوش الذى أسكن إحدى غرفِه، كان الهواءُ منعشًا وقتَ الغروبِ فأخذتُ نَفَسًا عميقًا يبدو أنه أعاد إلىَّ القدرةَ على الرؤية فنظرتُ ناحية مسجد محمد على وقلعة صلاح الدين .. والتفتُّ إلى الناحية الأخرى فوجدتُ أهراماتِ الجيزة وهى تبدو مِن بعيدٍ إلى جوار الشمس التى تأخذ طريقَها إلى الغروب، ودهشتُ لروعة هذا المكان الذى أقيم فيه دون أن أشعر بكل هذه القيمة الحضاريةِ والتاريخية

وقبْلَ أن أستطرد أدركتُ أن صلاح جالسٌ أمامى، وكذلك أم آمال

التى كانت لحظتَها تمد يدَها لى ببعض النعناع المغلي بالينسون حتى أهدأ أو أهدىء أعصابى مما رأيتُ حسَبَ وصفِها .. وهنا عاد لى المشهدُ الذى رأيتُه منذ دقائقَ بكل تفاصيله والرعب الذى كنتُ أعايشه لحظتَها، وأخذتُ أشرب النعناعَ المغلي بالينسون وفهمتُ من حوار أم آمال مع صلاح أن الحكومةَ سوف تأتى بعد قليل وسوف تسأل كل مَن تقابله، وبالطبع سوف ينكر أى أحدٍ أنه شاهَدَ أى شىء، وسوف تكتب مثل كل مرة ضد مجهول، وأنه لن يمر أكثر مِن يومٍ أو يومَيْن حتى تفتح قهوة كتكوت ثانيةً ويعود كل شيء كما كان..

ويبدو أن كوبَ النعناعِ المَغلي بالينسون الثالث قد سبَّبَ لى ارتياحًا كبيرًا حيث شعرتُ بهدوءٍ شديد يسيطر علىَّ خصوصًا مع النسمات الباردة التى بدأت تهب مع دخول الليل، فشعرتُ برجفةٍ فى جسدى وأخذتُ أدلِّكُ أطرافى بحثًا عن بعض الدفء وكانت هذه الإشارةُ كفيلةً بأن ينسحب صلاح مغادرا إلى حيث يسكن فى نفس الوقت الذى جمعتْ فيه أم آمال عدة الينسون والنعناع وأخذتْ طريقَها إلى غرفتِها بينما أنا اتخذتُ طريقى إلى غرفتى، وما إنْ أغلقتُ نورَ النجفة ووضعتُ جسدي العاري على السرير حتى سَحبتُ اللحافَ أبحث تحته عن بعض الدفء ..

ومع دخول ضوءِ القمر إلى الغرفة تراءتْ لى زوجةُ عبدِ البر وهى جالسةٌ بالقميص الأحمر الشفاف على السرير مسندةً ظهْرَها إلى الحائط كاشفةً عن ساقيْن بيضاويْن، وصدرٍ بارزٍ يتجه ناحيتي، وشفاهٍ مليئة بالرغبة، وعينيْن تتوقانِ إلى لحظة عشقٍ ومكاشفة. كانت الدعوةُ صريحةً، ووجدتْ منِّى كلَّ الاستجابةِ وأريتُها عندَها كل فنون العشق والتدلُّه التى أعرفُها والتى لا أعرفها، وأغرقتنى فى بحورٍ من المتعة واللذة أكثر مما كنتُ أحلم، وامتد بنا الليلُ بطولِه حيث لم أشعر إلا بالدفء الشديد الذى يقترب من درجة الاحتراق

انتفضتُ فوجدت الشمسَ قد دخلت إلى الغرفة عبْرَ الزجاج وتركزتْ على وجهى تماما، وكان هذا أحدَ عذاباتى فى هذه الغرفة .. إذْ إن الجوَّ فى القاهرة وفى هذا التوقيت يكون شديدَ الحرارة نهارًا مائلا إلى البرودة ليلا، كان هذا عكس ما تعلمناه فى الجغرافيا صغارا «جو حار جاف صيفًا، دافىء ممطِر شتاءً» تُرَى ما الذى أدى إلى هذا التغير؟ وكان علىَّ أن أجد ما أصنع منه ستارةً مناسبة تحول دون دخول الضوء بالنهار، وفكرت أن أطلب ذلك من أم آمال لكننى رفضتُ لعلمى السابق أنها لن تأخذ نقودًا على ذلك، ولرغبتى فى عدم تحميلِها أعباء أكثر مما تحتمل، إذاً فلأدخل إلى

الحمَّام، وبعد ذلك سوف أبحث عن طريقةٍ لعمل هذه الستارة دون توريط أم آمال فى ذلك

سَحبتُ الفوطةَ وعدة الحلاقة واتجهتُ إلى الحمَّام، كان كالعادة مغلَقًا من الداخل، وحين خبطتُ على الباب أتانى صوتُ المرأةِ البدينة التى يتصادف دخولى الحمَّام وقتَ دخولِها دائمًا، أحجمتُ عن الطرْق على الباب ثانيةً ولكننى وقفتُ أتلوى من الألم حيث كاد البول يسيل رغمًا عنى .. وحين فتحتِ البابَ خارجةً كالعادة بالملابس الداخلية والماء يتساقط من شعرها نظرتُ إليها معاتبا ولم أتفوّه بكلمةٍ غير أنها أدركتْ المعنى الذى أريد قولَه فواجهتنى:

- المعلِّم مزاجه كده .. مرة قبل ما يروح الشغل.. ومرة بعد ما يرجع، أقول له لأ؟

أزعجتنى هذه الصراحةُ كثيرا وأسرعتُ أدخل إلى الحمَّام، وبينما البول ينزلق فى سرعةٍ أدركتُ أن هذه لم تكن صراحة، إنها وقاحة .. نعم ولكن ماذا أستطيع أن أقول؟ إنها المرة الأولى التى تواجهنى فيها امرأةٌ بمثل هذا القول، غير أننى صرفتُ تفكيرى عنها سريعا ..

وأخذتُ أفكر فى أشياءَ أخرى علَّها تنسينى ما رأيتُه بالأمس، عند دخولى إلى غرفتى وجدتُ سليمان الريس، عانقتُه بفرحة وعانقنى بابتسامةٍ، وأخبرنى أنه اختصر أيامَ تكريمِه فى أسوان على اليوم الأول الذى شهد مراسِمَ التكريمِ واليومِ الثانى الذى ألقى فيه بعضًا من أشعاره، وفى الجلسة التى كانت مخصصةً للنقاد للتداول حول أشعارِه غادرهم واتجه إلى القطار ومنه إلى هنا مباشرة. تناوَلْنَا بعضَ الطعام واتجهنا معًا إلى زهرة البستان .. كانت الحياةُ تدور هناك كعادتها ولم يحدث أى شيء يلفت النظرَ من غرفتى إلى هنا سوى بعض المخبرين السريين الذين كانوا يقفون أمام قهوه كتكوت التى كانت مغلقةً فى هذا الصباح ..

تَبادَلَ سليمان الكلماتِ مع بعض الأصدقاء وتناوبوا الضحكات، واستغرقتُ فى متابعة الوجوه الموجودة وأنا أنسج فى خيالاتى حكاياتٍ أو علاماتٍ تربط بين هذا وذاك، أو بين هذا وهذه، وأفقتُ من خيالاتى على دخان شيشةٍ ينبعث من جوارى ويكاد أن يعميني .. التفتُّ فوجدتُ الفتاةَ أو المرأةَ التى كانت جالسةً إلى جوارى منذ أيامٍ تدخن الشيشةَ وهى فى حالة استرخاءٍ تام، وازدادت دهشتى حينَ نظرتْ إلىَّ مبتسمةً ابتسامةً مشجِّعةً لتبادل الحديث ..

واعتدلتُ فى جلستى محاولا التقربَ منها غير أن سليمانَ فى هذه اللحظة خطفنى من ذراعى وأخذ يسير وهو يمسك بى فى اتجاه شارع سليمان، استوقفتُه محاولا الفهمَ وأنا الذى كنتُ أُمَنِّي نفسى بصديقةٍ فإذا بها تهبِطُ علىَّ من حيث لا أدري وهى التى بدأتْ فى محاولة تجاذب الحديث، فلماذا فعلتَ هذا؟ ضحك سليمان ضحكةً عريضة ثم أمسك بكتفى :

- تعرف ..؟ دي أول مرة أعرف إنك حمار

اندهشتُ وحاولت أن أعرفَ السببَ وأنا أحاول العودةَ إلى حيث المقهى، إلا أنه استوقفنى

- البت دي مش طبيعية، أنا قابلتها هنا أول مرة من كام سنه وأخدتها المقابر، كنت فاهم إنها واحده جايه تزور البلد .. سايحة يعنى لكن أخوك صلاح أصر على إنها تقعد فى أوضة أُمَه .. الأوضة اللى انت ساكن فيها دلوقت، وقعدت عندهم يومين ثلاثة، وبعدين مشيت .. الظاهر إن أبو صلاح ما لفقش معاها، وهيه كل فتره تيجى تعقد هنا .. وتحط عينها على واحد.. وتحاول تتصاحب عليه .. فيه ناس بيقولوا إنها إسرائيلية .. وفيه ناس بيقولوا عندها الإيدز ..

علشان كده صاحب القهوه عامل لها شيشه لوحدها ما حدش يشرب منها غيرها ..حتى الكوبايه بتاعتها.. ما حدش بيشرب منها.. لكن الحقيقية.. ما حدش عارفها.. أهه كلام وبيتقال .

كان ما قاله سليمان كدُشٍ باردٍ ووقَع على رأسى، وأفقتُ ... أنا فقط مَن يعرف الحقيقة، وحتى تكتمل المعلومة علىَّ فقط أن أذهبَ إلى الحوش الآن.. يجب أن أعثر على بعض خطاباتها التى كانت ترسلُها لصلاح ..

وتذكرتُ أن أحدَ الخطاباتِ بالمظروف موجودٌ معى فى المحفظة، كنتُ قد كتبتُ عليه مقاساتِ الستارةِ التى أنوى عملَها على الشبَّاك، أخرجتُ المظروفَ والخطاب، وتأملتُ خاتم البريد، إنه خاتمُ بريدِ منطقة وسط البلد .. إذاً كانت ترسل لصلاح خطاباتِها من هنا وهو يتوهم أنه يرسل إليها الخطاباتِ بالخارج، أو ربما كان يظن أنه يرسل إليها على عنوان أحدِ أقاربِها أو معارفِها الذى يقوم بتوصيل الخطاب إليها، ونظرتُ إلى العنوان المرسَلِ إليه «القاهره. – مصر القديمة- مقابر الإمام – قهوه كتكوت .. وهنا أدركتُ أنه لا بُد أن يكون المقهى الذى بالإمام الليثي اسمُه أيضا « قهوة كتكوت» ولهذا حدَثَ الخطأ .. وعندما سألتُ سليمان عن إمكانية ذلك طلبَ منِّى

أن أشرح له ما يحدث حتى يفهم فأصررتُ على ألا يفهم ألا بعد أن يجيبَ وأخبرنى سليمان أن المقهى الموجودَ بالإمام الليثي اسمه قهوة كتكوت، وكذلك هناك واحد آخر فى السيدة عائشة، وهناك رابع فى الناصرية اسمه قهوه كتكوت، ومِن المؤكد أننا لو بحثنا لوجدنا عشراتِ المقاهى التى تحمل هذا الاسم..

وهنا بدأتُ أوضِّح لسليمانَ الحكايةَ التى حدثت معى بسببِه منذ أن سافر وترك لى صلاح والرسائلَ التى احتاجت إلى قاموسٍ لترجمتِها وحكاية البنت أو كيت كما أصبح معروفًا لدينا وما قالته لصلاح فى الرسائل .. وغضب أمِّ آمال وتمزيق صلاح لترجمات الرسائل، وضحكَ سليمانُ بشدةٍ وهو يؤكد أنه هو أول مَن قال إن البنت دي إسرائيلية، وإن عندها إيدز، وقد حاول تحذيرَ صلاح منها، لكنه لم يُعِره اهتمامًا إلا أنه بعد ذلك حذَّرَ الموجودين فى المقهى منها، وكان ذلك بناءً على تخمينات أو شعور داخلى ينتابه، ولكنه الآنَ وبعد أن وضحت الحقيقةُ أمامه ومِن خلال خطابات كيت نفسِها فقد قرر سليمان أن يواجِهَ الأمرَ ويفضحها بناءً على خطاباتها التى كتبتها بخط يدِها .. وكاد ذلك أن يُحدِثَ مشكلةً ما بين الفتاة مِن ناحية وصاحب المقهى وسليمان من ناحيةٍ أخرى،

وكادت الأمور أن تتطور وتأخذ أبعاداً أخرى إلا أن الفتاةَ أمام الخطابات التى وضعها سليمان أمامَها آثرتِ الابتعادَ متعهدةً ألا تعود إلى هذا المكان مرةً أخرى، وقد كان هذا آخِرَ عهدِ كيت بهذا المقهى ..

بدا سليمان فى الأيام التى تلت رحيلَ كيت مرتاحًا أكثر، كان يُكثِر من الجلوس على المقهى فى أوقاتٍ غير التى اعتاد عليها، وفى إحدى جلساتنا قال لى :

- الأصل فى قعدات المثقفين كانت ريش، لكن لما اتعملت علاقات دبلوماسيه مع إسرائيل طلب السفير الإسرائيلى إنه يقابل المثقفين، طبعا المسؤولين جابوله مثقفين لكن هو رفض، قال دول أنا عارفهم .. أنا عاوز المثقفين الحقيقيين، ونزل على ريش، فيه ناس ساعتها رفضت مجرد فكرة وجودها معاه فى مكان واحد، ونقلت على القهوة هنا .. وفيه ناس قالت تقعد تشوف هوّه عاوز إيه، اتكلموا معاه شويه .. لكن بعدها هُمّه كمان ما جوش ريش، اللى راح على «علي بابا» واللى راح إيزافيتش، واللى فضل هنا .. فضل بس فى القهوة هنا .. وريش بقت زي ما انت شايف..

وتركنى سليمانُ واتجه إلى مجموعةٍ من الأصدقاء وأخذ يتحدث وهو يضحك ويداعب هذا ويتحدث إلى آخرين، بينما أنا أتابع ما يحدث أمامى، وأتذكر هذه الفتاةَ كيت وكيف كانت فتاةَ أحلام صلاح، لا بُد أنه حَلُمَ بها لياليَ كثيرةٌ، لا بُد مِن أنه بَنَى آمالا كباراً على مجرد دعوتِها له .. لكننى لم أجد ما ألوم عليه صلاح على هذه الأفكار والأحلام، أَلَمْ أشارِكْه أنا نفس الأحلام فى الجلسة أو الجلستين التى جلستهما إلى جوارى؟ وشعرتُ بوخزةِ ألمٍ داخلى حيث إننا تعودنا أن نوجه اللومَ إلى الآخرين فى الوقت الذى يجب أن نلومَ أنفسَنا..

وتابعتُ حوارى مع نفسى وتوقفتْ عيناي عند سليمانَ وهو يتحدث مع مجموعة من الأصدقاء، لم يكن سليمان يضحك .. كان الحزنُ باديًا عليهم جميعا إلا سليمان .. كانت الدموعُ الغزيرة تُذرَفُ من عينيه وحالةٌ من البكاء العصبى والهستيرى المكتوم تنتابه وتكاد تشل أطرافَه، كان البعض يساعده على محاولة الجلوس أو التهدئة، وأسرعتُ ناحية سليمان حاولتُ أن أعرف ما الذى أصابه؟ ما الذى أصابهم جميعا؟

وأخذتُ أهدىء سليمان، لكنه قدَّمَ لى نسخةً من جريدة، نظرتُ

إلى حيث أشار، كانت صورةُ الرجُلِ الكبير الذى كان يجلس إلى جوار سليمان هنا منذ أيام والتفاصيل أن الجيرانَ والبوَّابَ شكوا فى أمر وفاتِه حيث لم يأخذ الجرائدَ من أمام الشقة لمدة ثلاثة أيام، وبعد أن قاموا بكسر باب الشقة وجدوه ملقىً فى صالة الشقة وقد مَر عليه على هذه الحال ثلاثةُ أيام، وبعد اتخاذ الإجراءاتِ اللازمة تم إرسالُه إلى بلدتِه بمعرفة أقاربِه، حيث دُفِنَ هناك. كانت هذه هى كل التفاصيل التى فى الجريدة .. وإنْ كانت قد أشارت إلى أنه عالِمٌ ومفكرٌ وشاعرٌ كبير، وقد أسْهَمَ بكتبٍ كثيرةٍ فى المكتبة العربية ولكننى لم أتبين طبيعةَ هذا الإسهام وفوجئتُ بسليمان يقف وهو يصرخ بكل قوة :

– لأ.. لأ يا بلد، مش احنا اللى نموت بالطريقه دى، مش إحنا اللى نموت زى الكلاب ولا حد يسمع لينا حس، لا يا بلد .. لأ ... لأ

وأسرع سليمان الريس الخطوَ وهو يصرخ بهذه الكلماتِ، حاولت اللحاقَ به، وحاول غيرى كذلك لكن سليمان كان أسرعَ مِنا كلنا .. واختفى سليمان الريس.. وإنْ كان صوتُه ما يزال يرن فى داخلِ كل واحدٍ مِنَّا ..

(٨)

بدا هذا المساءُ كئيبًا بالنسبة لي، كانت أيامُ الشتاءِ قد بدأت تدخل، ارتديتُ ملابس ثقيلةً وجلست فى الركن المفضل لى على السطوح حيث أستطيع أن أرى بالتفاتةٍ قلعةَ صلاح الدين، وبالتفاتةٍ أخرى أرى أهراماتِ الجيزة..

وجلستُ أدخن فى هدوءٍ ومِن مكانى لمحتُ المرأةَ البدينةَ تتجه إلى الحمَّام، وكعادتها أخذتْ وقتَها فى الداخل، وحين خرجتْ كعادتها أيضًا بالملابس الداخلية والماء يتساقط من شَعرِها، وأردافُها تهتز خلفَها .. ابتسمتُ ابتسامةً فاترةً وقلت «ربما غيَّرَ المعلّم مواعيدَه، أو ربما أضاف لنفسه موعدًا جديدًا،» لكننى استحسنتُ التفكيرَ الأولَ فقلتُ لنفسى إنه ربما له مواعيدُ صيفيةٌ ومواعيدُ شتوية .. فلقد تعوَّدنا أن نغيِّرَ الساعةَ صيفًا وشتاءً، فلماذا

لا يسير هو أيضا على هذه المواعيد الحكومية؟ وتأملتُ الفكرةَ .. هل يمكن للحكومة أن تتدخل أيضًا فى تحديد هذه المواعيد؟!!

إنها فكرةٌ تبدو بعيدةً وإنْ كانت غيرَ مستحيلةٍ، فالحكومة وإن كانت تقول إن الناسَ أحرار لكنها بشكل ما تتدخل فى حياتِهم اليومية بكل الأشكال؛ فالطعام والمسكن والمشرب .. كل هذا تتدخل فيه الحكومة وإن كانت تقول إن الأمورَ متروكةٌ للعرض والطلب إلا أن هذا هو قمة التدخل؛ فأنت حين لا تتدخل فى شىءٍ أبدا فهذا يعنى أنك ملِمٌّ بكل تفصيلاته، وإلا كيف تحكم الحكومةُ شعبًا لا تعرف كل تفصيلات حياتِه؟ وهكذا ما إنْ سمعتُ صوتَ ارتطامِ بابِ المرأةِ البدينة وهو يغلَق حتى أيقنتُ فى نفسى أن زوجَها المعلِّم ينفذ تعليماتٍ حكوميةً .. أراحنى هذا التفكير، وأخذتُ أبحث فى رأسى عن سليمان .. أو أم آمال .. أو صلاح .. أو حتى عبد البر ..

ولكننى وجدتُ ذهنى منصرفًا إلى التفكير فى الناس خلف الأبواب التى تبدو لى بعيدةً .. وإنْ كانت أنوار منازلِهم تبدو لى واضحةً، تُرَى كيف يعيش هؤلاء؟ هل يعيشون مثلى أيامَ كنتُ أعيش فى المنصورة؟ لم يكن لى فى المنصورةِ سوى أصدقاءَ قليلين، ذلك لأننى لم أمكثْ بها سوى شهورٍ معدودة هى شهور العمل ..

كانت لى غرفةٌ فوق أحد السطوح كانت مخصصةً فيما مضى لغسيل الملابس، ولكن أصحاب العمارة كانوا يقومون بتأجيرها، ذكرياتى فى المنصورة ليست كثيرةً لكن بلدتنا الأصلية هى التى حملتْ كل ذكرياتى ذكرياتِ الطفولةِ والشباب، ولا أظن أن أحدا سوف يهتم بمعرفة اسم البلدة التى أنتمي إليها فهى تقريبًا ليست على الخريطة

إنها عِزبةٌ من العِزَبِ التى أُنشِئتْ نتيجةَ قوانين الإصلاح الزراعى، عِزبة تتبع إحدى القرى التابعة بدورها لأحد المراكز الذى هو بدوره يتبع مدينةَ الجمالية.. أو مركز ومدينة الجمالية، العِزبة تتكون من شارعيْن وعددٍ قليل من البيوت التى تأوي أصحابَ الفدادين الخمسة لكل واحدٍ منهم. يومَ أن وُزِّعتْ هذه الأراضى عليهم أتى كل منهم بعائلتِه وأقام له منزلا وأخذوا يزرعون ويعيشون كما مُلاك الأراضى الحقيقيين .. .. ذكرياتٌ كنت أسمع عنها وأنا صغير، وكان كل منهم يعتز بأنه صافَحَ جمال عبد الناصر حين سلَّمَه وثيقة تملُّكِ الأرض، لكنهم بعد سنواتٍ وربما قبل أن يولَدَ جيلي بدأوا فى بيع هذه الأراضى، كانت بنوك التسليف والتنمية الزراعية تطاردهم بالمديونيات فيضطرون للبيع، فى هذا العام رُبع فدان،

وفى العام القادم نصف فدان، وفى العام الذى يليه، فدان كامل .. جهلاء قد تم تمليكهم أرضًا ولم يتم تعليمُهم كيفية الحفاظِ عليها، وقَعوا فريسةً لأصحاب رؤوس الأموال، وموظفى البنوك، وبعضِ السياسات الزراعية الخاطئة التى كانت تَفرِض عليهم زراعةَ الأراضى فى دورةٍ محددة سَلَفا فتنتِج الأراضى محاصيلَ لم تكن تجد مَن يشتريها سوى البنك الذى كان الفساد قد بدأ يعرف طريقَه إلى موظفيه، وهكذا صار الفلاحون يبيعون أرضَهم حتى أننى فى طفولتى هذه أذكر أنه عند وفاةِ والدي لم يكن لدينا نحن الأسرة كبيرة العدد سوى ثلاثةِ قراريطَ ونصف فقط، وتم بيعُ هذه القراريطِ الثلاثة ونصف لصالح الورثة والاتفاق على توزيع أنصبةِ الأولاد لصالح زواج البنات، ولولا ما أحدثته ثورةُ التعليم المجاني ما كنتُ عرفتُ طريق الدراسةِ الذى اضطررتُ من أجل استكمالِه إلى العمل ليلا فى بعض المِهَنِ التى أكسبتنى خبرةً لم أستفِد منها بعدُ، فلقد عملت فى محل فِراشه خفيرا ليليا أسهر إلى حين يأتى العمّال بالكراسي والمفارش سواءٌ أكانت المناسبة فرحًا أم جنازة .. وحين يضعون كل شيئ فى مكانه أقوم بإغلاق المحل، ومراتٍ عملتُ فى فُرنٍ بلدى، وأخرى صبي رَفّا، وكانت هذه أصعبَ المِهَن

إذْ إنها تحتاج إلى صبرٍ ودَأَبٍ حتى تتمكن من أن تصبح أُسطَى رَفّا، ولم يكن هذا طموحى على كل الأحوال .. فقدْ كانت كلية الحقوق هى أقرب الرغباتِ إلى نفسى، لا لرغبتى فى أن أُصبِح محاميًا أو أن أرفعَ رايةَ الدفاعِ عن المظلومين، ولم يكن لى فى مصطفى كامل قدوةٌ، كانت الحقوق تمثل لى وجهَ راحةٍ منِ أنها لا تتطلب الحضورَ اليومى مما يساعدني على العملِ ليلا ..

وعند تخرجى فيها كانت والدتي قد رحلت عن الدنيا .. وتزوَّجَ إخوتى ولم يبقَ غيرى فسعيتُ إلى أحد مُلاك الأراضى الجدد الذى استطاع بالواسطة أن يجد لى وظيفةَ باحثٍ قانونيّ فى إحدى المديريات بالمنصورة، ويبدو أنهم منذ البداية اكتشفوا أن ما بينى وبين مواد القانون التى درستُها يوازى علاقتى بالكيمياء التى لم أدرسها، فقدْ قرر رئيسى فى العمل نقلي إلى ديوان عام الوزارة بالقاهرة، الإدارة القانونية وهناك عرفتُ أننى لم أكن الوحيدَ الذى كان على خصامٍ مع القانون.. والقانون الوحيد الذى كانوا يعرفونه هو أن توقِّعَ فى الدفتر بما يفيد الحضورَ والانصراف .. فبذلك لا يتمكن أي أحدٍ من فصلكَ من العمل، وبذلك تدَّعي أنك تعمل والدولة تدفع لك جنيهاتٍ قليلةً مقابل هذا التوقيع، وابتسمتُ

وأنا أذكر هذه النكتةَ احنا بنستعبط وعاملين بنشتغل، والحكومة بتستعبط وعامله بتدينا مرتبات

وأيقنتُ أن هذا الاستعباطَ أصبح جزءًا من مسيرة حياتنا، وأننا جميعا أدمناه فها نحن نعيش فى المقابر وبنستعبط وبنقول إن احنا ساكنين، وبنظرةٍ أخرى إلى طعامنا نجد أننا لا نأكل من الطعام إلا ما لا يصلح للتصدير، أي ما يرفضه أبناءُ الشعوبِ الأخرى .. هذا إلى جانب الأغذية المسرطنة التى كان يعرف مَن سرطنوها أن أغلبَ الشعبِ المصرى سيسقط صريعًا لهذا المرض، وإلا فما الذى دفَعَ بهم إلى بناء هذه الوحدات الكثيرة فى غالبية المدن والقرى للكشف بالأشعة لاكتشاف السرطان أو لمحاولةِ علاجِه؟ أليس هذا هو الاستعباط بعينه؟!!

وتذكرتُ زميلةً لى فى حقوق المنصورة وقتَ أن كنا ندرس هناك، كان بالمنصورة مركز لعلاج أمراض الكُلَى على مستوىً عالمي، وكان المَرْضَى يأتون إليه من كل مكان، لكنَّ نجلاءَ زميلتي هذه قالت لى ذات يوم ونحن فى استراحةِ ما بين المحاضرات إن مراكز الكُلَى فى خلال سنواتٍ قليلة سوف تكون فى كل قريةٍ وكل مدينة وكل محافظة .. وحين دهشتُ من هذه النظرةِ المتشائمة قالت لى

إن مياهَ الشربِ التى نشربها سوف تسبب المشاكل للكثيرين فى المدى القريب، وهذا يعلمُه أصحاب رؤوس الأموال، ولهذا سوف تتكاثر مراكز علاج الكُلَى مثلما سوف تتكاثر مستشفيات علاج السرطان وبالتحديد للأطفال .. وقتَها راودنى شعورٌ بأن نجلاءَ هذه تحاول أن تدفعنى فى اتجاهٍ بعينِه. خصوصًا وأنا أعرف أنها يساريةُ النهج، وكثيرون من الزملاء كانوا يحذروننى من التعاملِ معها، لم أفهم حينَها هذا التلميحَ من الأصدقاء ولكننى بعد مقولتِها هذه عن أمراض الكُلَى والسرطان التى سوف تنتشر قلتُ ربما كانوا يقصدون سوداوية أو تشاؤمية لكننى الآن أدرك أن نجلاءَ زميلةَ الحقوقِ القديمة كانت بوعيٍ منها تدرك هذا الاستعباطَ أو هذه النتيجةَ التى توصلتُ إليها أنا الآن، ولكن تُرَى أين نجلاءُ الآن؟ هل تزوجتْ؟ أَم انها تخرَّجتْ وعملت فى المحاماةِ كما كانت تحب أن تصف حياتَها بعد التخرج؟ كفاحاً فى سبيل حقوق الفقراء والمطحونيين .. وهذا هو السبب الذى دفعها إلى دخول كلية الحقوق..

انصرَفَ تفكيري عن نجلاءَ وإنْ ظللتُ فى داخلى أتامل معنى الاستعباط الذى توصلتُ إليه، وظلتِ الفكرةُ تراودنى وتداعب

خيالى بأشكالٍ متعددة، غير أننى لم أستطع التوصلَ مِن خلالها إلى نتيجةٍ محددة .. أشعر- نعم- أن هناك شيئاً ما، ولكن مِن الصعب بالنسبة لى أن أضعَه فى جملةٍ مفيدة، لو كان سليمان معى ربما كان ساعدنى على التفسير.. ولكن أين أنت الآن يا سليمان؟ هل أذهب لأبحث عنه فى الأماكن التى أعرف أنه يتردد عليها؟ أَم أتجه إلى غرفتِه لأبحث عنه هناك؟ فربما كان يغلقها على نفسه مثيرًا تساؤلاتٍ تشبه تساؤلاتى؟ وخطَرَ لى أنه ربما فى الطريق إلى الحوش الذى يسكن به، ربما ألقَى نظرةً على حوش عبدِ البر، وربما إذا لم أجده فى الغرفة أذهـبُ إلى مقهى كتكوت.. فالمقهى قد أعيدَ افتتاحُه منذ أيام بعيدة. وربما أتابع الجالسين هناك، ولكننى حزمتُ أمرى ودخلتُ إلى غرفتى على أمل أن ينشق الحائط وتخرج منه زوجةُ عبدِ البر كعادتها فربما نتجاذب أطرافَ الحديث، وربما نتبادل بعض الهمسات قبل أن يمضي بنا الليلُ إلى ما يمضى إليه .. وقبل أن تغادر الغرفةَ مِن الحائط .

(٩)

كنتُ قد عدتُ لِتَوِّي من العمل، ولم أشأ الجلوسَ على المقهى فقررتُ السيرَ وسط الأحواش فى الشوارع الترابية التى يسكن أحواشَها كثير من البشر تاركين أطفالَهم يلعبون ويلهون أمام الأحواش، وأخذتنى قدماي من طريقٍ إلى طريق، أموات فى الداخل وأحياء يعيشون، وأطفال يلعبون، وأنا أسير لا أدري إلى أين تأخذنى قدماي. وأخيرًا قررتُ العودةَ إلى الحوش الذى أسكن فيه، وعند وصولى إلى باب الحوش وجدتُ جَمْعًا كثيرا من الرجال والنساء فى مدخل الحوش، جاهدتُ حتى استطعتُ الدخولَ فوجدت الجميعَ واقفين فى اتجاهٍ وأُمَّ آمال واقفةً بمفردها فى المقابل رافعةً الشبشبَ فى يدِها تلوِّح به فى وجه الجميع .. وهناك على المصطبة «البرش» يجلس رجُلٌ كبير فى السن، نحيفٌ يرتدى فانلة بحمَّالات، وتبرز جميع عظامِه

بشكلٍ لافتٍ للنظر..

حاولتُ استطلاعَ الأمرِ فعرفتُ أن زوجةَ هذا الرجُلِ قد شكَتْ لأُم آمال سوءَ معاملتِه لها، فما كان منها إلا أن قامت بانتزاعِه من غرفتِه لأنه ضرب زوجتَه بالحزام الجلدي حتى أدمَى جسدَها، ولهذا قررتْ أم آمال ألا يبيتَ هذا الرجلُ فى غرفتِه هذه الليلةَ، وقد طردته خارج الحوش إلا أنه اصطحَبَ هؤلاءِ الرجالَ فى محاولةٍ منه لإثناءِ أم آمال عن قرارِها والسماح له بالعودة إلى غرفته، ولكنها قررت قرارَها وليس هناك مفرٌ مِن أن يبيت هذه الليلةَ خارج الحوش، وتعالت أصواتُ الرجالِ تطالب أم آمال بالعفو عن الرجل، وكان فى مقدمة المتحدثين عبد البر الذى كان يقف بكامل ملابسِه وسيفُه فى يدِه ولكنه ما إنْ رفعَ صوتَه حتى فوجىء بأم آمال تلوِّح بالشبشب فى يدِها صارخةً ..

- بدال ما تعمل راجل هنا، روح لِمّ مراتك أحسن .. وخلينى ساكته.

كانت هذه الجملةُ كفيلةً بأن يتراجعَ عبد البر، وبدلا مما توقعتُه منه أن يحاول الدفاعَ عن زوجتِه أو إسكاتَ أم آمال إذا به يسحبُ نفسَه إلى الخارج بعد أن طاطا رأسَه وانصرفَ، وكذلك فعلَ الكثير مِن

الرجال الذين كانوا واقفين بينما البقيةُ الباقية قد آثرت الصمتَ والجلوسَ فى مواجهة الرجلِ الجالسِ على المصطبة وهو بهذه الملابس يرتعد من البرد ..

حاولتُ أن أتدخل إلا أن أم آمال منعتنى بحركةٍ من يدِها، وكانت هذه الحركةُ كفيلةً بأن يَخرج باقى الرجال آخذين معهم ذلك الرجلَ المذعورَ بعيداً عن أم آمال وغضبِها الذى كان قد بلغ ذِروتَه فى هذه اللحظة. خلا المكانُ من الجميع فى لحظةٍ فيما عداي، وأم آمال التى جلستْ فى مكانها المعتاد ونظرتْ إلىَّ نظرةً محددةَ المعنى إمَّا أن تجلس وتشرب القهوة وإمَّا أن تنصرف .

واخترتُ الأولى وجلستُ بينما هى تضع القهوةَ على السبرتايه وأنا أنظر إلى كل هذا الغضب الذى يعلو وجهَها، ومددتُ يدي إلى علبة سجائرها وأخرجتُ سيجارةً أشعلتُها وقدَّمتُها إليها .. وعندها نظرتْ إلىَّ بترددٍ، ولكنها سرعان ما رفعتِ السيجارةَ إلى فمِها وأخذت نَفَسًا عميقا ونظرتْ إلىَّ نظرةً عابرة، وعادت إلى سيرتِها الأولى فى صنعِ القهوة، بينما أنا أشعل سيجارةً لى. أَخذَ الهدوءُ يكسو وجهَها شيئًا فشيئًا وبعد قليلٍ أخذت تحكي لى عن المرأةِ التى أتت إليها وجميعُ أجزاءِ جسدِها كأنها شُرِّحتْ بموسى

.. وهى تنزف من عدة أماكنَ، وأنه آنَ الأوان أن يتعلم هذا الرجلُ قاسى القلبِ درسًا لعلَّه يحسِن معاملةَ امرأته فى المرات القادمة، وحاولتُ معرفةَ أين المرأةُ الآنَ فقالت لى إنها فى غرفتِها فى الدور العلوي، الدور الذى أسكن فيه، مِن المؤكد أنها إحدى ساكناتِ الغُرَفِ المغلقةِ دائمًا على مَن فيها، واللاتى بحُكمِ تواجدي غير المستمر لا أشعر بوجودِهن فى هذه الغُرَفِ إلا مِن خلال صوتٍ خارجٍ من تليفزيون أو مذياع أو صياح بعض الأطفال خصوصًا فى لحظات الصباح الأولى .. لم أهتم بمن هى المرأة وأخذتُ أستمع إلى أم آمال التى كانت تحكي عن سوء معاملة هؤلاء الرجالِ لزوجاتِهم وكأنهم قد اتخذوهن عبيدًا لديهم، وأخذتْ أم آمال تحكي عن المعاناةِ التى تلاقيها مثل هذه المرأةِ وإلا ما كانت لجأتْ إليها، وسألتُها عن عبد البر.. وكيف استطاعت أن تقفَ فى وجهِه بهذه القوةِ وهذا التحدي؟

وهنا أخبرتنى أنها عندما مات زوجُها أو الرجلُ الذى تزوجها لكى يقيَها الذلَّ والمرمطةَ والخدمةَ فى البيوت على حد تعبيرها. عاشتْ هنا وحيدةً لأيام لا تجد ما تتقوَّتُ به؛ فقد كاد خزين البيتِ أن ينفد لولا أنها استطاعت بمساعدة إحدى السيدات اللاتى كُنّ يعِشن فى

المقابر منذ فترة، استطاعت صنْعَ قطعةٍ من الحلاوة باستخدام «شوية سُكّر وليمونه وشوية ميه « وكانت تمر على النساءِ ساكناتِ الأحواش وتقدم لهن هذه الخدمةَ وتحصل فى المقابل على ما يعينها على الحياة، ولأنها كانت «صغيرةً وشاطره» كما كانوا يقولون فقدْ زاد الطلبُ عليها وأصبحت تدخل جميعَ الغُرَفِ الموجودةِ فى الأحواش، ولأن هذه المهنةَ تستدعي المكاشفةَ إذْ تخلع المرأةُ عنها ما يحول دون إتقانِ العمل فكانت الواحدةُ منهن لا تجد غضاضةً فى الكشف عن ما فى داخل النفس..

فهذه تشكو مِن بُخلِ زوجِها، وتلك تشكو من رائحتِه النتنة خصوصًا عندما يعاشرها، والأخرى تشكو من ضعفِ زوجِها الجنسي الذى لا يجعله يستمتع بهذا الجمال الذى تحرِص على أن تُريه لأم امال .. وتتواصل لحظاتُ المكاشفةِ من النسوةِ وهُنّ لا يجدن حرجًا فى أن يقُلْنَ أمام أم آمال أيَّ شيءٍ وكلَّ شيء، حتى أصبحتْ فى إحدى المحطاتِ المهمة فى حياتها على عِلمٍ بكل التفاصيل الدقيقة منها والعادية، الخادشةِ للحياء والمعروفةِ للجميع، وقد أعطتها هذه المعلوماتُ التى كانت تنهال عليها دون أن تطلب مصدرَ قوةٍ فى مواجهة رجال الأحواش؛ فهى التى تعلم ربما ما لا يعلمون، وهى

التى تعلم مَنْ مِنْ هؤلاءِ النسوةِ على شرفِها ومَن التى تخونُ زوجَها..

ولأن الرجُلَ فى الغالب يقضى معظمَ وقتِه ما بين العملِ والمقهى فكان الجميعُ يخشون أن يكون هناك ما تعرفه أم آمال ويجهلونه هُم، ويبدو أن أم آمال قد أدركت قبْلَ الكثيرين قوةَ المعلوماتِ فحافظتْ عليها ولم تحاول أن تبوحَ بها، ولكنها كانت تستخدمها أحيانًا عندما تَشرَعُ فى تأديب امرأة، ولهذا كان الرجال يلجأون إليها وهُم على علمٍ بأنه لا توجد امرأةٌ تستطيع أن تقاوم أم آمال .. ومع الوقت ازدادت قوتُها وفرضتها أيضًا على الرجال، ولهذا لا يستطيع أحدٌ هنا أن يرد طلبًا إلا بإرادتِها .. ويبدو أنها وسط هذه الحكايةِ كانت قد أجابت عن كثيرٍ مِن تساؤلاتى حول مصادرِ تكوينِ شخصيتِها دون الحاجةِ إلى سؤالِها مباشرةً، غير أنها أردفت :

الكلام ده كان مِن حوالى عشر سنين كده .. علشان دلوقت أنا بطلت شغلانة الحلاوة دي ..

نظرتُ إليها مندهشًا، لكنها أوضحت:

– ما هو اتضح إن لى معاش باخده أول كل شهر، خالى فى الأول كان بيصرفه على أنه ولي أمرى، لكن بعد كده لما طلبوا منه أوراق

وبطاقه وحاجات مِن دي جالي لغاية هنا، داخ لغاية لمّا عرف أنا فين، وأنا رحت معاه .. واتضح إن ليه معاش كمان من جوزي، آه الجناينى .. أصله هوه كمان طلع مصاب عمليات حربيه وكانوا بيصرفوا له معاش، خالى طلب إنى أعمِل له توكيل بالصرف، لكن أنا ما صدقت وعرفت إن ليّه فلوس .. وطيت على إيد الموظف وبوستها وقلت له يعمل المستحيل بس الفلوس توصل لى وخالي ما ياخدهاش، الموظف يومها قال لى لو عاوزه نحبس خالك بالفلوس اللى أخدها إحنا ممكن نحبسه، لكن أنا قلت لأ .. ده مهما كان خالي وسامحته وراح لحاله ومِن يومها لا أعرف عنه لا حس ولا خبر، لكن المعاش أول كل شهر بيبقى فى البوسته، وهوّه ده اللى أنا عايشه منه ، ما أعرفش إذا كان ده معاش أبويه واللا معاش جوزي، الموظف هوّه اللى يعرف، لكن اللى أنا عارفاه إنى أروح البوسته أصرف المعاش أول كل شهر.

كانت هذه الإجابات عن أسئلةٍ ظلت تحيِّرُني لأيام كيف تصرف؟ كيف تعيش؟ ولماذا ترفض دومًا أن تأخذ أي نقود؟ وكيف لها أن تساعد «المزنوقين» على حد وصف سليمان؟ لقد وضح لى كثيرٌ من الصورة فى هذه اللحظات التى ازداد وجهُها فيها إشراقًا بفعل

شمس الغروب التى مالت ودخلت علينا الحوش مِن فتحةٍ صغيرةٍ فى الباب فأضاءت وجهَها الذى بدا لي ساحرًا ملائكيًا في هذه اللحظة ..

وشعرتُ برجفةٍ تسري فى جسدى، كم هي جميلةٌ أم آمال .. إن جمالَها من نوعٍ أخَّاذ، جمالٌ لا يلفت النظرَ للوهلة الأولى، فقط حين تبوح بما تحملُه على كتفيها عبْرَ سنوات .. وأخذتُ أتأمل قسماتِها، إنها دقيقةٌ فى كل شىء، دقيقةُ الأنفِ، دقيقةُ الشفتين، بياض أسنانِها لم تلوثه السجائر والقهوة، خدَّاها لم تحفر السنون خطوطًا عليهما وإنْ كانت هناك بعض الخطوطِ الخفيفة حول عينيها، عيناها يتلونانِ ما بين العسلي والأخضر، وشَعرُها الذى ينكشف جزءٌ منه مِن تحت الطرحة يتموج باللونِ الكستنائي مع شعاع الشمس، ودهشتُ مِن هذه التفاصيل، وهذه الخواطر التى تجعلنى أنظر للمرة الأولى إلى أم آمال على أنها أنثى، أنا أعلمُ أنها أنثى من البدايةِ لكننى أعتبرها أُمًّا، أو أُختًا لا يصِحُ لى تأملُ مفاتِنها .. تُرَى ما الذى حدَثَ وغيَّرَ نظرتي إليها؟

وقبلَ أن أستغرقَ أكثرَ مع هذه التفاصيل دخَلَ علينا الرجلُ العجوز بفانلتِه الحمّالات وهو يتوسل إلى أم آمال أن تتركَه يصعد إلى

غرفتِه، فإذا بأم آمال تتحول إلى وحشٍ صارخٍ رافضةً مجردَ هذا التوسل، وسمعتُ صوتًا مِن أعلى ينادي :

– سيبيه بقى علشان خاطري يا أم آمال.

نظرتُ إلى أعلى فوجدتُ المرأةَ البدينةَ التى اعتادت دخولَ الحمَّام مرتيْنِ فى اليوم، وحاولتُ الربطَ ما بين هذه المرأة وهذا الرجلِ الذى يشبِه الهيكلَ العظمي، وقبلَ أن أتساءلَ كانت أم آمال تجيب:

– حنِّيتي؟ حنِّيتي يا وسخه .. طيب وحياة ده – وأشارت إلى شَعرِها – ما هو طالِع عندك الليلة وأمّا نشوف كلام مين فينا اللى هيمشى، وإذا ما دخليتش أوضتك وقفلتيها عليكى أنا بقى اللى هاطلع أخلى الأحواش كلها تتفرج عليكى.

وما هى إلا لحظةٌ واحدة حتى كانت المرأة قد دخلت غرفتَها، وأنا لا أكاد أتمالك نفسى من الموقف هل أضحك؟ لو ضحكتُ سوف يبدو موقفى غايةً فى الغرابة ولكن هل هذا هو «المعلّم» الذى يلزمه مرتيْن مرة قبْلَ الشغل، ومرة بعد الشغل؟ هذا الهيكل العظمي الذى يقف بالفانلة الداخلية ويكاد يقع على قدمَي أمِّ آمال لكى يقبِّلَها؟ وأخرجتني أم آمال مِن أفكاري بسرعة

– روح انت دلوقت اطلع أوضتك واللا شوف وراك إيه، أمَّا أنا فأنا هاقعد هنا لغاية الصبح. أحرس الكلب ده ويبقى يورينى هيطلع أوضته إزاى؟

وجلس الرجلُ القرفصاءَ على المصطبة، بينما جلستْ أم آمال على الكرسي الفوتيه وهى تدخن ..

وأخذتُ أنا طريقى إلى غرفتى محاولا كتْمَ ضحكاتى التى ما إنْ دخلتُ إلى الغرفة حتى وجدتنى أضحك بشكلٍ هيستيرى، لا يهمنى إنْ كان أحدٌ قد سمِعَ أصواتَ الضحك، إلا أن المفارقةَ التى كانت واضحةً أمامى بين هذا الرجلِ الهزيل الذى تبرز عظامُ كتفيه وصورتِه الأقرب إلى الهيكل العظمي، وهذه البدينة ذات الأرداف الممتلئة التى تتمايل فى خطوِها بفعلِ زيادةِ وزنِها، وتصورتُ الوضعَ بالمقلوب .. تصورتُ أن المرأةَ هى التى تطالِبُه بالفعل مرتيْن، وربما رفضَ فعايَرَته بقِلةِ الرجولةِ فما كان منه إلا أن جلَدَها بالحزام، هذا هو التصور المنطقى للأمر، ولكن مَن يملك حقيقةَ الإجابة؟ إنها أم آمال، ولكن هل أجرؤ على سؤالِها سؤالاً كهذا؟ الآنَ لستُ أدري .. لكن ربما تسمحُ لنا الأيامُ بالخوضِ فى تفاصيلَ نُحجِمُ عنها الآنَ .. مَن يدري!!

(١٠)

منذ أن عادَ سليمان الريس وضُحَ لى تَغَيُّرُ الكثيرِ مِن عاداتِه، لم يكن يُكثِر الضحكَ بصوتٍ عالٍ كما تعوَّدَ دائمًا، كانت تكفيه الابتسامةُ .. وحين كنا نجلس فى الأتوبيس كان يطالِعُ الجرائدَ أو يقرأ فى أحد الكتب، وعلى المقهى قَلَّتْ مشاغباتُه كثيراً وكذلك حركاته، كان توَّاقًا إلى الجلوس صامتًا أو الدخول فى مناقشاتٍ جادةٍ فى أغلبِها، حتى إذا ذهبنا لشرب البيرة كان كذلك يتحدث أكثرَ مما يصمِت، وضُحَ لى التغير فى سلوكيات سليمان لكننى لم أشأ أن أسألَه عن سبب التغيير الذى حدث، هل هو هذا الرجُلُ الذى مات ووجدوه فى شقته بعد ثلاثة أيام؟ أَم أن سليمان قد بدأ يشعر بأن آوانَ الهزلِ قد ولَّى؟ واقتراب الموتِ من أصدقائه هو الذى دَفَعه إلى هذه الجديةِ التى كانت إحدى سماتِه الجديدة، كنتُ قد عرَفتُ

مِن سليمان منذ أتَى أن هناك الكثير من أصدقائه قد ماتوا فى الفترةِ التى غابَ عنِّى فيها .

وقد بـدأتْ هذه النغمةُ ذاتُها تتردد كثيرًا منذ عـودة سليمان، فقليلا ما يمر يـومٌ دون أن يخطفَ الموتُ أحـدَ أصدقائه، كنتُ أعرف ذلك حين يأخذنى لنسيرَ فى جنازةٍ أو لحضور عزاءٍ فى سرادق، أو لحضور تكريمٍ فى إحدى النقابات لراحلٍ عزيز. أخذتُ أتأملُ سِيَرَ هؤلاءِ الموتى .. منهم شبابٌ صغار، ومنهم مَن فى عُمرِ الرجولة، ومنهم شيوخٌ كبار، مِنهم ذكورٌ، ومنهم إناث، والغريبُ أن الوتيرةَ أخـذتْ فى التصاعُدِ، فلا يكاد يمر يـومٌ مِن دون أن أعرف أن سليمان فقدَ شريكًا فى رحلةِ الكفاحِ والحياة، شعراءَ وأدباءَ ومفكرين، رجالَ سياسةٍ واقتصاد، أساتذةَ جامعةٍ ونقابيين .. سلسلة طويلة تعجز الذاكرةُ عن الاحتفاظِ بأسمائهم، ذاكرتى أنا بالطبع، لكن ذاكرة سليمان وبالأحرى ذاكرة الوطن لن يسقط منها هؤلاء، كلهم شاركوا سليمانَ نفسَ الحُلم .. الحلم فى التغيير، الحلم فى حياةٍ أفضل مِن التى نعيشُها ونستحق أن نعيشَها، لستُ أنا وسليمان بالطبع، ولكن كل المعدَمين، وأخذتْ أحزانُ سليمانَ تتزايد يومًا بعد يوما ..

وأثناءَ عودتِنا من سرادق عزاء صحفيٍّ معروفٍ خطَفَه الموتُ فى سنواتِ شبابِه ونُضجِه، لم ينبِسْ سليمان بأية كلمة واحترمتُ صمْتَه الذى أفضى بنا مع المسير إلى مقابر الإمام حيث نسكن، وحين أردتُ أن أتركَه مودِّعًا أَصَر على أن أدخلَ معه إلى غرفتِه، كانت المرة الأولى التى أدخلُ فيها إلى غرفة سليمان، لم تكن غرفةً بَل كانت مكتبةً عامة بها «كنبه اسطنبولي» ينام عليها ويُخزِّن فى باطنها بعضَ الكتبِ التى ازدحمت بها الغرفة، جلستُ أتأمل الغرفةَ بينما هو يُعِدّ لنا الشايَ وأخذت أقلِّبُ ناظرى فى الكتب الموجودة حولى، وحين وضع الشايَ أمامى أخذتُ أزيحُ الكتبَ الموجودةَ على المنضدة حتى يجد مكانًا يضع فيه صينية الشاى، كادت الكتُبُ أن تقعَ على الأرض لكننى لحقتُها فى اللحظةِ الأخيرة، تَناوَلَ الكتبَ من يدي وأخذ يضعُها إلى جوارى كتابًا كتابًا وهو يعلِّق :

– اليوم ماتت أمى .. أو لعلها ماتت بالأمس.. لست أدري .. البير كامي .. الغريب

ووضع الكتابَ فى المكان الخالي إلى جواري.. ثم أردف:

– قال: اقعد فى ثقب الإبرة ولا تبرح، فإذا دخل الخيطُ فلا تمسسه.

وإذا خَرج فلا تمده. وافرح فإنى أحِب الفَرِحين . النفرى .. المواقف والمخاطبات ووضعَ الكتابَ فوق زميله .. وأردف:

- إذا الشعبُ يومًا أراد الحياةَ فلا بُد أن يستجيب القدَر .. ولا بُد لليل أن ينجلي ولا بُد للقيد أن ينكسر.. أبو القاسم الشابى، ووضع الكتابَ وأردف:

- إن ما أُخِذَ بالقوة لا يُستردَ إلا بالقوة.. مجموعة خُطَب جمال عبد الناصر ووضعَ الكتابَ فوق الكتبِ الأخرى وأردف:

- إن رأيى صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب.. الإمام الشافعى ووضعَ الكتابَ وأردف :

- إن الأفكارَ لها أجنحةٌ مثل العصافير تطير، والحُلم الذى يجمعنا هو حلم التغيير .. سليمان الريس ووضعَ الكتابَ الأخيرَ فوق الكتب

نظرتُ إلى العنوان فوجدتُه «أفكار العصافير» مجموعة الأعمال الكاملة للشاعر سليمان الريس، وأدركتُ أن سليمان كان يختصر لى كل كتابٍ من هذه الكتب فى جملة، نظرتُ إلى سليمانَ محاولا الفهْمَ .. لكنه كان يحلِّق فى دنيا أخرى ..

شربتُ الشايَ ودخَّنتُ عدة سجائر وأنا أحترم صمْتَ سليمان

وعدمَ رغبتِه فى الحوار أو الحديث. ولمَّا طال بنا الوقت قررتُ أخيرا أن أغادر .. وودَّعتُ سليمان على أمل أن ألقاه غدا، وسرتُ حتى وصلت إلى الحوش الذى أسكن فيه ..

طرقتُ بابَ أُم آمال ففتحتِ الباب، كانت المرةَ الأولى التى تفتح فيها البابَ كاملا، مددتُ يدى لآخذ المفتاحَ لكنها أخبرتنى أنها قلقتْ لغيابى.. تعللتُ بأعذارٍ عدة ويبدو أنها لم تقتنعْ بكلامى فأخبرتُها أننى كنتُ مع سليمانَ فى غرفتِه، نظرتْ إلىَّ نظرةً معاتِبة فأقسمتُ لها أننى كنتُ مع سليمانَ ولم أنظر حتى ناحيةَ بابِ عبد البر، ابتسمتْ ابتسامةً راضيةً وأوضحتْ لى أنها تركتْ لى طعامَ العشاء على المنضدة فى الغرفة، شكرتُها وانصرفتُ

وأخذتُ أفكِّر .. ما الذى دعاها إلى السهر حتى هذا الوقت؟ فهى فى العاده تنامُ مبكرا، وعندما أَطرُقُ بابَها تفتح وهى نصف نائمة وتمد يدَها بالمفتاح والكبريت والشمعة، وتدخل مباشرةً لاستكمال نومِها، تُرَى هل هناك ما أرَّقَها؟ هل كانت تود أن تتبادلَ الحديثَ معى؟ ولكننى لغبائى لم أقدِّرْ منها هذا الشعورَ، أنا أعلم أنها تحب التحدثَ إلىَّ، خصوصًا أننى أجيد الإنصات إليها، تَرَى هل تصرفتُ بغباءٍ؟ هل أعود ثانيةً وأطرُقُ بابَها؟ ربما كان هناك فى

الأمر شىء .. لكننى الآنَ وسط هذه الكومةِ من الأحزان التى لفَّنى بها سليمان الريس لستُ حتى فى مزاجٍ يسمح لى بالاستماعِ إلى أُم آمال أو غيرها، ما أريده حقا هو النوم .. وها هو سريرى.. نظرتُ إلى الطعام الموضوع على الترابيزة.. جلستُ وأكلتُ منه القليلَ على الرغم مِن أنه كان شهياً لكن النوم عندى لحظتَها كان أشهى مِن كل مشهيات الدنيا..

فى الصباح مَرّ على سليمان كالعادة .. وتجاذبتُ أطرافَ الحديث مع أُم آمال أمام باب الحوش واتجهتُ مع سليمان إلى عملى ووقَّعتُ لأسبوع كالعادة، وأخذتُ أتجول فى وسط شوارع القاهرة مع سليمان، ودخلنا شارع طلعت حرب ومنه إلى شارع البستان، وتوقفنا قليلا أمام النادي الدبلوماسي لنشعل سيجارتيْن حتى لا يطفىء الهواءُ أعوادَ الثقاب.. وفى لحظةِ وقوفِنا وقفتْ أمامنا سيارةٌ فارهة ونزل منها رجُلٌ ملامحه معروفةٌ لدينا، ولكننا لم نلتفت إليه إلا حين تَقدَّمَ إلينا وحيَّانا ..

انتابتنى الدهشةُ .. صلاح؟ ما هذا التغير الذى طرأ عليه فجأة؟ ونزلت من الباب الآخر كيت، ولم أفهم كيف اجتمَعَ الاثنان .. وفهمتُ من حوارهما السريع مع سليمان أنهما فى الطريق لشراء

أحد العقارات القديمة الموجودة بهذا الشارع، وتصافحنا وافترقنا وأنا لا أدري ما الذى حدث لصلاح، أخذتُ أسير خلف سليمان فى اتجاه المتحفِ المصري وهو يروي لى ما حدث،

فصلاح بعد أن مزَّقَ الخطاباتِ حسَبها فى عقله .. خصوصا بعد أن أخبره سليمان أن الفتاةَ كيت موجودةٌ فى القاهرة فقرر صلاح الاتصالَ بها، ومن خلال المراسلة تمكَّنَ من لقائها وربما يكونان قد تزوَّجَا إذْ إن صلاح لم يَعُد أحدٌ يراه فى مقابر الإمام أو فى محل سكنِه أو عملِه منذ فترةٍ طويلة، وهذا هو الهدف الأساسى من وجود كيت وإلى جوارها صلاح فى هذه المنطقة تحديدا .. إنهم يعيدون شراءَ المساكنِ التى كانت لليهود قبل أن يغادورا مصرَ إلى إسرائيل، وطبعا بقية الحكاية معروفة .. إنهم يحاولون إثباتَ أنهم كانوا هنا من البداية، أو أن لهم أملاكًا يستطيعون بموجبها الدخولَ والخروجَ كيفما يريدون، وصلاح مِن السهل تحويلُه إلى رجُلِ أعمال بتغييرٍ بسيط فى هيئتِه وحسابه فى البنوك، ويتولى هو عمليةَ الشراء التى تدفع فيها مبالغ عالية يدفعها صلاح، وهو طبعًا لا يدفع من جيبه ، ويكفيه أن يعيشَ هذه الحياةَ التى يتمناها كل مَن كان وعيُه على قدْرِ وعي صلاح . سرَدَ سليمان هذه التفاصيلَ

ببساطةٍ وكأنه يعرف الحكايةَ من البداية، بينما كنتُ أنا أحاول أن أُمَنطِقَ الأشياءَ فى رأسى .. صلاح السمان وسيارة بهذه الكيفية، وقبل أن أستطرد مع خواطرى أفاقنى سليمان :

«ما تقلقش.. أول ما تاخد اللى هيه عاوزاه منه هترميه زى الجزمة القديمة، وقبل ما تعدي على صلاح سَنه هتلاقيه راجع الإمام يدوّر على أُجرة الأوضه، همّه مش غرضهم اللي زي صلاح .. لكن صلاح بالنسبة ليهم سلِّمَه .. أول ما يدوسوا عليها يفكروا فى السلِّمَه اللي بعد كده، واحد ينفع يبقى عضو مجلس شعب أو يبقى وزير، حاجه عليها القيمه .. أمّا اللي زي صلاح فجزمه .

ومضى سليمان محاذِيًا المتحفَ المصري فى اتجاه شارع رمسيس وأنا أحاول اللحاقَ به، ودارت فى رأسى آلافُ الأسئلة.. ما الذى يدفع هؤلاء لمثل هذه الأفعال؟ وإذا كانوا يفكرون هكذا فهذا يعنى أنهم يفكرون لسنواتٍ كثيرة قادمة كيف استطاعت التقاطَ صلاح من وسط هولاء البشر الذين تكتظ بهم القاهرة؟ وكيف صارحته بكل بساطةٍ فى خطاباتها بأنها إسرائيليةٌ؟ وكيف واصلت الطريقَ معه على الرغم من مُضي سنواتٍ على أول لقاء لهما؟ ووجدتنى أصِل فى النهاية إلى بديهية الناس دى ما بتعرفش

الاستعباط، وكنت قد اعتدتُ فى أيامى السابقةِ منذ أن وصلتُ إلى هذه النتيجة وهى الاستعباط وأنا أُعزِي إليها الكثيرَ من التصرفات والأفعال التى أراها أمامى، حالاتٌ نادرةٌ هى التى لا تمارس هذا الفعل، حتى أنا ضبطتُ نفسى متلبِّسًا بفعل الاستعباط مع زوجة عبد البر مع يقينى الذى يكاد أن يصل إلى حد الاقتناع التام بأنها تأتي إلىَّ كل ليلةٍ عبْرَ الحائط ..

كانت الأفكارُ تأخذنى بعيداً حين وصلتُ مع سليمانَ إلى شارع معروف، توقَّف سليمان وواصلَ السيرَ حتى وصل إلى سلَّم نقابة المحامين .. كان هناك الكثير من المحامين واقفين وأمامهم مجموعةٌ من القُضَاةِ وهُم يرفعون شعاراتٍ تطالب بالتغيير والديموقراطية، وفى مواجهتهم جحافلُ مِن سيارات الأمن المركزى وكبارِ ضباط الشرطة وسيارات مدرعة، والحركةُ متوقفةٌ تمامًا فى الشارع .. غافَلَ سليمان بعضَ الجنود وإذا به واقفٌ وسط الواقفين رافعًا معهم أحدَ الشعارات، لم تكن هناك أيُّ بادرةٍ للهجوم.. فالواقفون فى المواجهة رجالُ قضاءٍ بالأوشحة التى يرتدونها، عندئذٍ توجهتُ إلى إحدى النواصي القريبة من جمعية الشبان المسلمين ووقفت خلف الجنود أراقبُ الواقفين كما

يراقبهم الواقفون، كانت حركة صامتة، ويبدو أن الضباطَ كانوا يعلَمون فحرصوا على أن يسير اليوم على خيرِ ما يرام ..

فى وسط الشارع وما بين الضباط كان هناك بعضُ الفتياتِ اللاتي يبدو أنهن يقُمْنَ بعملِ تقاريرَ صحفية، كان ذلك واضحًا من الكاميرات والمسجِّلات التى فى أيديهن، وكُنَّ يتجولن بين الضباط بشكلٍ طبيعى بل إن إحداهن أجرتْ حديثًا مع ضابطٍ من الواقفين ولم يعترض الضابط بل رأيتُه يبادلها الحديثَ الذى كانت تُسجِّله على المسجِّل بيدها، أخذتُ أراقب الحركةَ فى الشارع وأراقب الواقفين فى صمتٍ رافعين اللافتات أو مردِّدين بعض الشعارات بين الحين والآخر، وما هى إلا لحظات حتى لاحظتُ اختفاءَ كبارِ الضباط من الشارع فأدركتُ أن باقى القوات سوف تغادر ومِن ثَم سوف أخذ سليمان ونمضي إلى أحد المقاهى، لكنَّ مجموعةً من النساء لم أعرفْ مِن أين أتيْنَ دخَلنَ إلى الشارع وأخذْنَ فى ضرب الفتياتِ الموجودات بالشارع بكل قسوة ..

حاولتِ الفتياتُ الدفاعَ عن أنفسهن، لكنَّ النسوةَ الضارباتِ كُنّ يَقُمْنَ بما هو أكثر من الضرب، إذْ كانت كلُّ ثلاثِ أو أربعِ نسوةٍ يقتفين أثَرَ فتاةٍ ويَضربنها ويبدأنَ فى تمزيق ملابسها، تعرضتْ

أولُ فتاةٍ لتمزيق بلوزتِها تمامًا مما دفَعَ الواقفين على السلّم إلى محاولة التدخل، وكانت هذه الإشارة التى بدأ عندها العساكر فى ممارسة الضرب، وعندَها تذكرتُ تعليماتِ سليمان فأخذتُ أبحث بعيني عن السيارة التى يضعون فيها المتهمين لعلِّي أراه وهو يركب، لكننى فى نفس اللحظة لمحتُ فتاةً وقد أصرت السيداتُ على تمزيق ملابسها كاملةً وترْكِها فى الشارع دون أي حماية. ولم أشعرْ إلا بنفسى مدفوعا وسط الجنود والسيدات محاولا دفْعَ الفتاةِ بعيداً عن ذلك الصخب وكانت قد أصبحتْ بالملابس الداخلية «المايوه الحريمي البكيني» وهى تحاول أن تداري نفسَها بأي شىء، أعطاها أحدُهم الكوفية المذيَّلة بعَلَمِ فلسطين لتضعها حول وسطها لتستُر نفسَها، فى الوقت الذى كانت فيه الأيدي تحاول نهشَ جسدِها وكان الضربُ قد بَلغَ مَدَاه..

نظرتُ إلى السيارة التى يوضَع فيها المتهمون، وجدتُ عدةَ سيارات ولكننى لم أتمكن من أن ألمح سليمان . عدتُ مسرعًا إلى الرصيف متفاديًا الضربَ قدْرَ الإمكان، وحينما أزاح العسكري الواقفُ أمامي الصدّادةَ لمحتُ سليمان فى منتصف الشارع، إلا أن العسكري أعاد الصدَّادةَ إلى مكانِها، وفى المرةِ التالية حين حرَّكَ

العسكري الصدادةَ لم أجِد سليمان، حاولتُ البحثَ عنه، لكننى لم أجده

وجدتُ فقط بعضَ الواقفين يتشاركون فى ضرب شخصٍ ما سقَطَ على الأرض، حاولتُ التيقنَ .. كان سليمان .. بدت الفوضى هى المسيطرة على كل شى، وحين دخلتُ سيارةَ الإسعاف إلى حيث سليمان كنتُ قد أفسحتُ لنفسى طريقًا حتى وصلتُ إليه محمولا على النقالة وهُم يسرعون به إلى داخل سيارة الإسعاف. أَمسَكَ بيدي وأنا أجري إلى جوارِه:

- اجري على العربيه .. العربيه اللي هناك أهه

وأدخلوه إلى سيارة الإسعاف، لا أدرى هل ابتسَمَ حين قال ذلك؟ هل كان يسخر منِّى ومِن طول انتظاري للمشاركة؟ هل كان يسخر مِن ترددي الدائم؟ لا أذكر إلا أنه كان ينزفُ مِن كل أجزاءِ جسدِه، ولم أشعرْ بعدَها بالضربات التى كانت تنهال علىَّ فقد أخذتُ أقاوِمُ حتى استطعتُ أن أخطف «عصًا « مِن أحد العساكر وأخذتُ أضرب بها وأوسِّعُ لنفسى مكانًا حتى إذا وصلتُ إلى سلالم النقابة جريتُ واحتميتُ بالمبنى مِن الداخل ..

الكثيرُ مِن المساعدة قُدِّمَ لى فى الداخل، تضميد جروح، ومشروب، وتنظيف لبعض الجروح فى الرأس .. لم يكن الأمرُ يستدعي أيَّ تدخُلٍ جراحي.. فقدْ كان هناك الكثيرون مِثلي، والجميع يتلقّى المعونةَ والمساعدة، ومِن الطبيعي ألا يعرفنى أيُّ أحدٍ فى الداخل لكنهم قدَّموا لى يدَ المساعدة على خيرِ وجه، ووجَّهَ أحدُهم النصيحةَ لنا بأن نظل هنا حتى تتفرق المعركةُ الدائرة فى الخارج، وبعدَها لنا أن نعودَ إلى منازلنا، كانت هناك حالةٌ من الودِّ تسود المبنى مِن الداخل على عكس البُغضِ والكراهية اللذيْنِ كانا موجودَيْن فى الشارع .. ولم أفهم سببَ هذا التناقض..

غيرَ أننى استندتُ على الكرسي الذي أجلس عليه وأخذتُ أراقب الوجوهَ الموجودةَ حولى، إنها تحمل نفسَ التعبير الذى رأيتُه مراتٍ عديدة، نفس الرغبة، ونفس الحلم، تتغير الملامح .. هذا يميل إلى السمرة، وهذا بياضه يشعرك أنه ذو أصولٍ أجنبية، وهذا مصري الملامح .. لكنهم جميعا بداخلهم نفس الحلم، نفس التعبير الذى يبدو واضحا للعيان .. ومن خلال الهواتف المحمولة التى يحملها بعضُهم عرفتُ أن سليمان الريس قد توفِّي فى الطريق إلى المستشفى، حاولتُ التأكدَ من الخبر مِن أكثر مِن واحد ومِن

أكثر مِن واحدة .. جميعهم أكدوا لى الخبرَ... استُشْهِدَ سليمان وهو فى الطريق إلى المستشفى، فزعتُ، وحاولتُ الخروجَ ولكنهم لم يَسمحوا لى بالخروج إلا بعد أن هدأتِ الحركةُ فى الشارع .

عندما عدتُ إلى الحوش حاولتْ أُم آمال فى البداية أن تفهمَ غير أن عدمَ قدرتى على الوقوف دفعتها إلى أن تسندني حتى وصلتُ إلى غرفتى.. ظللتُ فى السرير لمدة ثلاثةِ أيامٍ متواصلة، كان الألمُ كلما سكن فى جزءٍ مِن جسدي اندلَعَ فى جزءٍ آخر، وظلتْ أُم آمال تداوينى .. فى اليوم الأول اكتفتْ بالمُسَكِّنات ومطهِّراتِ الجروح وبعضِ الأغذية الخفيفة كالشوربة أو الطعام المسلوق .. وفى المساء تركتنى وذهبتْ إلى حجرتها، فى الصباح التالي أتتْ لى بطبيبٍ وبفحصِ ما ألَمَّ بي نَصَحها الطبيبُ بضرورة الراحة التامة مع بعض المُضادات الحيوية التى لا بُد أن تؤخَذَ فى مواعيدها وبعض مسكنات الألم مع ضرورة «الغيار على الجروح» كل يوم .. وأعطاها الطبيبُ الروشتةَ التى كَتَبها، وأحضرتِ الدواءَ وأخذتْ تحاول محادثتى.. وحين علمتْ بوفاة سليمان الريس انتابَها ذهولٌ شديد ولم تَبكِ أو تصرخ، قالت كلمةً واحدة:

- «ابن موت»

وخرجتْ من الغرفة وتركتنى وحيدًا، أدركتُ أنها ربما خرجت إلى السطوح لتبكي بمفردها، أو ربما نزلتْ إلى غرفتها لتفرغ وحدَها ما تَجمَّعَ فى صدرها من أحزان، لكننى تأملتُ عبارتَها كثيرًا «ابن موت» كنتُ أسمع هذه الجُملةَ كثيرًا فى القرية، وأنا صغيرٌ كانوا يقولونها على الأولاد الذين يملأون الدنيا حركةً، الأولاد الذين يتمتعون بخفةِ ظِلٍ وشقاوةٍ وذكاءٍ فيه حِدّة، الأولاد الذين نقول عن الواحد منهم «أكبر من سِنه» .. كان الكبارُ دائمًا يقولون عنه «ابن موت» كأنه مولودٌ ليموت، ولأننى أعرف أنه ما مِن أحدٍ فى هذه الدنيا إلا ومصيرُه الموت أخذتُ أدقِّقُ فى هذه العبارة وأخيرًا اهتديتُ إلى أنهم يقولون «ابن موت» على الأشخاص أو الأولاد الذين يتوقعون لهم شأنا كبيرا حتى إذا مات .. وهذا أمرٌ طبيعى، فكأنهم بذلك قد نذَرره للموت، أمَّا إذا تحققتْ أمانيهم فيه وعاش فترةً طويلةً فإنهم بذلك يكونون قد أبعَدوا عنه العينَ الحاسدة. إنها حيلةٌ يلجأ إليها الناسُ حين يفقِدون حبيبًا فجأة أو عزيزًا عليهم يأخذه الموتُ على حين غِرة .. إنهم بذلك يواسون أنفسَهم وهذا ما فعلته أُم آمال منذ لحظات.. قالت إن سليمان ابن موت .. لكن هذا لم يمنعها من الانفراد بنفسِها للبكاء وإفراغِ الصدر مِن هذه الأحمالِ الثقيلة التى

ولَّدَها الموت.

عندما عادت أُم آمال كانت هناك مسحةٌ من الحزن تظلل وجهَها، لكنها ظلت تداوم على مداواتي مثلما أشار إليها الطبيب، ومع الزيارة الثانية للطبيب كنتُ قد بدأت أشعر ببعض الراحة إلا أنه أشار علىَّ بعدم بذْلِ أي مجهودٍ بدني فى الأيام القادمة والاكتفاءِ بالسير لفتراتٍ بسيطة ثم العودة إلى الفراش خشيةَ أن تَحدثَ لي انتكاسة .. وهكذا كُتِبَ علىَّ أن أمضى الأيامَ القليلةَ القادمة داخل مقابر الإمام .. أتجولُ فى الشوارع قليلا ثم أعود إلى حيث الحوش الذى أقطن إحدى غُرَفه..

وفى فترةِ العصاري كنتُ أنزل لأجلس إلى جوار أُم آمال ونشرب القهوة وبعض السجائر، وتأخذ تحكي لى حكايتَها التى لم أكن أَمَلّها أبدًا .. غير أنها بعد ذلك غيَّرتْ مِن هذه العادة وصارت تنقل جلسةَ العصارى إلى السطوح حتى أكون قريبًا من غرفتى، وهكذا كنت أجلس فى ظل الغرفة أتحاشى الجلوسَ فى الشمس بينما هى تصنع القهوة. وفى ذات يوم وبينما نحن نشرب القهوةَ خطَرَ لى أن أسألها عن اسمِها الحقيقى، وقبل أن أشرع فى السؤال وجدتُها تجيب عنه باستفاضةٍ لم أكن أتوقعها:

-الناس هنا فى الحوش بيقولو لى أم آمال .. مافيش ولا واحد ولا واحده هنا يعرف اسمى الحقيقى مافيش غير موظف البوسته. وده مش ساكن هنا .. علشان ده اللى باقبض من عنده المعاش بالبطاقه بتاعتى .. أمال دى بنت صغيرة فى يوم وأنا قاعده فى الحوش زى ما انت بتشوفنى قاعده لقيت واحده ست ملفوفه بملايه جت جنب الحوش اللى قدامنا وحطت لفه .. أنا قلت يمكن حاجه لأهل الله أو إكرام للميت اللى جوه الحوش، بعد شويه لقيت اللفه بتتحرك، جريت ناحية اللفه لقيت فيها بنت ... بنت صغيرة... عمرها يومين تلاته لكن بنت زى القمر .. أخدتها ولفّيت التُّرَب كلها حوش حوش .. اللى جه فى بالى إن الست سابتها هنا علشان ما تعيطش وهيه فى جنازه واللا زيارة.. لكن لما ما لقتيش الست.. قلت آخد البنت وأربيها .. وإذ حد سأل عنها أبقى أرجعها له، وسمّتها آمال، فضلِت البت معايا حوالى سَنَه .. كانت قمر .. لكن ما تعزش على اللى خلقها ... أنا دفنتها فى الحوش هنا.. وعملت لها عَزَا ما اتعملش لناس كبار أبدا، وفضِل الحزن فى قلبى من يومها عليها ، وتلاقينى كل يوم فى نفس الميعاد أبص على الحوش أقول يمكن الست قلبها أكلها على ضناها وجت تسأل عليها، أقول لها إيه اللى حصل للبنت؟

وزى ما انت شايف آدى السنين عمَّاله تعدي والأُم ما جاش فى بالها حتى تعرف إيه اللى حصل لبنتها، أنا عاوزه بس أدلها على قبرها علشان تبقى تترحّم عليها ، لكن يظهر إن أُمّها مافيش فى قلبها رحمه .. وإلا ما كانتش رمتها من الأول..

المهم .. ده بقى اللى خللى الناس يقولو لى أُم آمال، لكن خالي وأولاد خالي وحتى الراجل اللى اتجوزنى كانوا يقولولى يا روحيه، وأنا كنت فاهمه إن اسمى روحيه لكن حتى ده كمان ما طلعش اسمى .. اسمى الحقيقى عرفته يوم ما رحت طلَّعت بطاقة الرقم القومى علشان أصرف المعاش ..

ولم تكمل، إذاً هى ليست أُم آمال وليست روحيه، ونظرتُ إليها متسائلا فأشعَرَها ذلك بالخجل ونظرتْ إلى الأرض..

- اسمي الحقيقي حوريه..

وارتسمتْ على وجهى ابتسامةٌ خفيفة، نظرتْ هى إلىَّ ولاحظتِ الابتسامةَ وأقسَمتْ علىَّ بكل مَن أعرف ومَن لا أعرف أن لا يعرف أحدٌ اسمَها، وأنها لا تعرف ما الذى جعلها تقصُّ علىَّ هذه الحكاية .. وبدأتْ تشعر بالندم إلا أننى اعترفتُ لها بأن ذلك الاسمَ هو

الذى خطَرَ ببالى عندما عرفتُ أن اسمَها ليس أُم آمال، وأنها إمَّا أن تكون حورية أو مَلَك، هذا هو الاسم الذى يليق بها وبأفعالِها، ولأننى لستُ مِن النوع الذى يعقِد رابطًا ما بين الاسمِ وصاحبِه إلا أن أُم آمال - أو لنقُل «حوريه «- أوضحت الأمرَ لى بدون مشقةٍ حيث قالت:

- كل واحد له مِن اسمه نصيب..

وهكذا .. وبدون فلسفةٍ ولا تنظير وضعتْ هى الأمورَ فى نِصابِها، إنها حورية ولها مِن اسمِها نصيبٌ كبير، كما أننى سعيد ولي مِن اسمي نصيب، وإلا ما كنتُ قد قابلتُ هذه الإنسانةَ شديدةَ الروعةِ والرقة والإنسانية والجاذبية فى آنٍ واحدٍ ... حوريه ...

امتدتِ الجلساتُ بين حورية وبيني فى السطوح، ولكنها ما تكاد تشعر بالغروب إلا وتنصحنى بأن أدخلَ إلى الغرفةِ أو أنزل لأجلس معها أمام الحوش أو أمام غرفتها حتى نكمل الحديث، وأخذتِ الأيامُ تمُر وأنا وحوريه نتقارب حتى أننى صرتُ لا أطيق اللحظاتِ التى أغادر فيها الحوش، كان هناك شىءٌ بدأ ينمو بينى وبينها لكننى لم أعرفْ هذا الشىء ..

وما هى إلا أيام حتى عدتُ إلى العمل، كان اليوم المحدد لى بمعرفتى يصادف مرةً كل شهر تواجد جميعِ الموظفين .. كنتُ أنظر إلى الوجوهِ المرهَقة، وعرفتُ أنهم إمَّا متزوجون أو يعولون أُسَراً كبيرة، وبدأتْ صداقاتٌ تنمو بينى وبين البعض منهم، وأخبرنى بعضهم أنه يعمل على تاكسي فى فترة بعض الظهْرِ والآخرون يعملون فى محلات أو شركات أخرى، وحدَّثَنى جميعهم عن ضغوط الحياة التى يتعرضون لها، لكننى بعد أن وقَّعتُ فى الدفتر كالمعتاد أخذتُ طريقى إلى البنك لصرف راتبى .. وحيث إن صلاح لم يعد يحضر إلى المقابر فقدْ توفَّرَ لى إيجارُ الغرفة، ومن ناحيةٍ أخرى كانت حورية تقوم بالكثير من أمور الصرف على الطعام والشراب وترفض مقابلا لذلك، ولهذا وجدتُ نفسى الموظفَ الوحيدَ الذى يكفيه راتِبُه، حتى الجلوس على قهوة كتكوت لم يعد مِن عاداتى بعد أن رحل سليمان عن دنيانا واختفى صلاح من الحوش .. صحيح أننى كنت أذهب فى أوقاتٍ متباعدة إلى زهرة البستان لأستعيدَ بعضًا منِّي فقدتُه مع فقدي لسليمان، وصحيحٌ أنني كنتُ أتوجه مرةً أول كل شهر إلى حيث كنا نشرب البيرة. بل وأدخل وأشرب زجاجة بيرة وأراقب المتواجدين الذين ما يزالون يتحدثون ويضعون

الكوفية الحمراءَ المذيَّلةَ بعَلَم فلسطين، وصحيحٌ أيضا أننى فى بعض الأحيان كنت أحمل صينية بسبوسة أثناء عودتى إلى الحوش؛ وذلك لعلمي بأن حوريةَ تعشق البسبوسةَ المحشوة .. إلا أن كل هذا لم يكن يستنزف راتبى الذى كان يصل بى إلى نهاية الشهر ..

وكنتُ بهذا الوصف الموظفَ الوحيد على أرض البلاد الذى لا ينتمي إلى طبقة الأغنياء ومع ذلك يكفيه راتبُه .. صحيحٌ أننى اجتماعيًا أُصَنَّف ضمن طبقة الفقراء، حيث تغيَّرَ مفهومُ الطبقاتِ فى بلادنا فبعدَ أن كانت هناك طبقة الفقراء، والكادحين، والطبقة المتوسطة، والطبقة العليا أو الأرستقراطية إلا أن هذا المفهومَ قد انتهى منذ زمن حيث تآكلت الطبقةُ الوسطى ولم يعد لها وجود، وهى الطبقة التى كانت تضم التُّجارَ والمدرسين والموظفين وبعض المهنيين، لكنها تآكلت وأصبح هناك مِن التجار إمَّا أغنياء أو فقراء، وكذلك المدرِّسون والمِهَن كافة .. هناك مَن صعد إلى أعلى، والغالبية العظمى هبطت إلى أسفل، وفى أسفل لا توجد سوى طبقةِ الفقراء ..

صحيحٌ أننى أُعتَبَر فى الدرجات العليا لهذه الطبقة حيث إننى الآن قد رُقِّيتُ إلى باحثٍ قانونيٍّ ثانٍ .. ولكن ما زال هناك مَن هُم

فى مقدمة هذه الطبقة ومنهم الأستاذ محسن رئيسي فى العمل الذى يعمل باحثًا .. باحثًا قانونيا أولَ نهارًا، وفى فترة منتصف اليوم يعمل فى شركة استشارات قانونية، وفى آخر الليل تجده يقود « تُكتُك» فى شارع ترسا .. هكذا شرَحَ لى الأستاذ محسن وصفَه الاجتماعي ولهذا أنا أضعه على قمة طبقة الفقراء؛ فهو بالكاد مع هذا الكفاح مستور ويستطيع ألا يستدين كثيرًا أثناء الشهر، بل إنه من النُّبَل حيث يسارع بتسديد ديونه فى أول فرصةٍ متاحة وإنْ كنتُ أظن أن سرعةَ سدادِ الدَّيْنِ سببها أنه سوف يعود ثانيةً إلى الاستدانة، فإذا لم يسدد فإنه لن يستدينَ وبهذا يغرق وهو يعرف هذا، وإن كان يحاول أن يمنطِقَ الأمورَ بمنطقه الذى يستعين به لمواجهة الحياة فى بداية الألفية الثالثة فى مصر.. وبهذا التصنيف الطبقى للأستاذ محسن أجد أنه يسبقنى فى الدرجةِ الاجتماعية داخل الطبقة الواحدة، وكذلك يسبقنى فى الدرجةِ الوظيفية داخل الوظيفة الواحدة، ولهذا كان لا بُد حينما أراه أن أسلِّم عليه:

- إزيك يا محسن بيه!!

فيرد ساخرًا:

- إزيك يا باشا !!

وهكذا .. صرنا نتبادل هذا التعظيمَ والتفخيمَ حتى كان اليوم الذى ناداني فيه إلى مكتبِه وأخبرنى أنه علىَّ الذهاب فى الصباح إلى المنصورة لإحضار مسودات قضايا تخص الإدارة، على أنه يعرف أنهم لن يعطونى الأصولَ، ولهذا علىَّ أن أقومَ بنسخ هذه المستندات نَسخًا يدويًا، وقد يستغرق منِّى هذا بعضَ الوقت ..

وقد اختارنى لهذه المهمةِ دونًا عن باقى الزملاء أولا لأننى مِن المنصورة، أو لنقُلْ لى معارفُ فى الإدارةِ هناك وذلك عندما اعترضتُ بأننى مِن أرياف المنصورة، ثانيًا لأننى الوحيد الذى لا يعمل عملا آخرَ قد يتضرر بسبب غيابه أثناء المأمورية، ثالثًا لأننى الوحيد غير المتزوج فى مجموعة الباحثين القانونيين فى الإدارة؛ ولهذا لن يشعر بغيابى أحد، وعليه فقدْ استقر رأي سيادتِه على أننى يجب أن أذهب فى الصباح فى مأمورية مدتها خمسةَ عشرَ يومًا مُغريًا إيايَ بأننى عند عودتى سوف أصرف بدل سفر وبدل مبيت وما إلى ذلك . لم أعلم ساعتَها ما الذى يجب أن أفعلَه، هل أثور فى وجه محسن؟ هل أسبّه؟ هل ألعنُه؟ أَم أن علىّ أن أتحمل هذا العذاب الذى أعلم أننى سوف أجده فى المنصورة؟ فالغرفة التى كنتُ أستاجرها مِن المؤكد أنها أُجِّرت لآخرين، وأخيرًا قلتُ لنفسى

لا بأس نحن فى اليوم الأول من الشهر وما زال معى راتبى يعيننى، وربما وجدتُ مكانًا مناسبًا للمبيت. كان هذا كل ما شغلنى فى هذه الأثناء، وأخذتُ أوراقَ المأمورية ومضيتُ مسرعا إلى الحوش، وفى طريقى اشتريت صينية البسبوسة المحشوة التى تعشقها حورية. وعندما وصلتُ وضعتُ أمامها البسبوسة التى تحبها فكادت تطير من الفرح، وأخبرتنى أنها أعدت طعامًا لغذائى ومِن الأفضل أن أتناولَه ساخنًا على أن نتناول القهوةَ فى العصاري

أسرعتُ إلى غرفتى وتناولتُ الطعامَ، وأخذتُ أرتِّبُ أغراضى بسرعة داخلَ الحقيبة مستعدا لرحلة طويلة سوف تبدأ من الغد الباكر، ونمتُ قليلا بعد الطعام الشهى، وعندما نزلتُ وجدت حورية قد أعدت القهوة وبدأنا فى تناول القهوة والتدخين بتلذذٍ وهى تحكي لى ما حدث معها اليوم، وأخذت أنا أحكى لها ما حدث معى وقصة المأمورية والأسباب التى دعت رئيسى لاختيارى، وأننى سوف أغيب خمسةَ عشرَ يومًا. لم تدعنى حورية أكمِل كلامى .. نظرتْ إلى ذاتَ النظرةِ التى أذابتنى يومًا أمامها، وتحجرت دموعٌ فى عينيها وقامت وأغلقت البابَ خلفَها، لم استطع أن أفهم ماذا حدث وهممتُ بطرْقِ الباب ولكننى تراجعت، أخرجتُ سيجارةً

ودخّنتُها وصرتُ أصدر أصواتًا كثيرة وأنا أدخن .. أسعل مثلا علَّها تعرفُ أننى ما زلتُ موجوداً فتَخرج، لكن شيئا مِن هذا لم يحدث.. كانت الشمسُ قد بدأت تميل إلى الغروب ..

فخرجتُ وتمشيتُ قليلا فى الشارع الترابى أمام الحوش، وما إن هبط الليلُ بأول خيوطِه حتى عدتُ ثانيةً إلى الحوش .. كان باب حورية ما زال مغلَقا وعدة القهوة ما زالت مكانَها، صعدتُ إلى غرفتى وأضأتُ النجفةَ وبدلتُ ملابسى وأطفأتُ النجفة وألقيتُ بنفسى على السرير .

سمعتُ طَرْقًا خفيفًا على الباب، فقمتُ وفتحته، كانت حورية بنفس الملابس التى رأيتُها بها يومَ أن قالت لى «قلقت عليك» واقفةً أمام الباب ناظرةً إلى أسفل، ما إنْ فتحتُ البابَ حتى دخلتْ وأغلقت البابَ خلفَها..

حاولتُ أن أفهم منها سببَ غضبِها منِّى، وأن الأمرَ ليس بيدي جلستْ على طرف السرير وقالت إنها ليست غضبى منِّى .. هى غضبى مِن نفسِها، وانزعجتُ .. إنها لم تفعلْ لى أي شيء يغضبنى فلماذا تغضب مِن نفسها؟ قالت وهى تنظر إلى الأرض إنها كانت تشعر منذ فترةٍ بأن ما سيحدث هو الذى سيحدث، حاولتْ أن تقتلَ

الفكرةَ بداخلها لكنها لم تستطع، لم تجرِّب الحُبَّ فى حياتها، والأكثر أنها لم تُسلِمْ نفسَها بإرادتها لأحد أو بغير إرادتها، لم يلمِسها بشرٌ قَط .. كانت حياتُها رحلةً من كفاح، حكتْ لى بعضًا منه، لكنها فى الآونة الأخيرة شعرتْ بهذا الشعور ينمو بداخلها، كانت تقاوم .. لكننى فى الفترةِ الأخيرةِ ساعدتُ هذا الشعورَ على أن ينطلق، كان ضوءُ القمر الداخل إلينا من الغرفة يشِع بنورِه على جبينِها فيضىء . واقتربتُ منها، أمسكتُ بيدِها وشعرتُ برجفةٍ تجتاحُ جسدَها بالكامل

أنتِ .. أنتِ يا حورية .. أنا أحبكِ أكثَر مِن أي شىءٍ فى الدنيا، مرات كثيرة فكرتُ فى أن أقولَها لك، كنتُ أخشى رفضكِ .. كنتُ أخشى مِن قسوتك على الآخرين أن تنقلبَ قسوةً علىَّ .. لم أكن أجرؤ حتى على أن أفكر فيكِ فى أحلامى .. أنتِ أكثرُ مما أتمنى، بل إننى أشعر أنكِ تستحقين مَن هو أفضل مِنِّى، مَن هو أكثر مالا أو مَنصِبًا .. أنا .. أنا أشعر وأنا أمسك بهاتيْن اليديْن أن هذا كثيرٌ علىَّ ..

ووجدتنى أقبِّلُ يديها وأحتويها بين أحضاني، وشعرتُ بأحضانها الدافئةِ تهزني مِن الداخل، واقتربتُ مِن وجنتيها، كانت كأنما نيرانٌ

اشتعلت فيهما .. وقبَّلتُها .. أدارتْ رأسَها ناحيةً أخرى .. ووجدتنى أقبِّلُها مِن شفتيها .. يا لهذه المتعة .. ويا لهذه الروعة، وأخذتُ أرتوي وهى تعطيننى .. تعطيننى ما كانت تمنعُه عن الآخرين هذه السنواتِ الطوال، وأنا أشعر أننى الذَّكَرُ الأقوى، الذَّكَر الذى يقطف البذورَ الأولى، والحباتِ الأولى، والقُبُلاتِ الأولى، والأحضانَ الأولى .. وبغريزةٍ أنثوية لا تخطىء علَّمَتني ما لم أكن أعلم، علَّمَتنى أن الجنسَ ليس حالةً غريزية، إنه حالةٌ من التوحدِ الإنسانى العاطفى العميق الذى يتلازم فيه الذَّكَرُ والأنثى ليحظيان معًا بأكبر قدْرٍ من الاستجابة واللذة والمتعة فى نفس الوقت .. قبَّلتُ كلَّ أجزاءِ جسدِها .. وانطفاتِ الجذوةُ الجنسية ولكن الحب المشتعل فى قلوبنا ظل يجذب كلا مِنّا إلى الآخر رافضًا أن يتركَه ..

وعاودنا الكَرَّةَ مرةً ومراتٍ، ودائمًا لا نفترق .. لا يريد جسدي فراقَ جسدِها .. ووضعتْ رأسَها على كتفي ونامت، أخذتُ أتحسَّسُ شَعرَها المتناثرَ على جسدي وأخذتنى غفوةٌ قصيرة .. استيقظتُ فلم أجدها إلى جواري، لم تكن فى الغرفة، لكن كل شىء فى الغرفة يقسِم أنها كانت هنا، أسرعتُ إلى الحمَّام ومنه إلى الغرفة. أخذتُ حقيبتى بعد أن تناولتُ قطعةً من الطعام الذى أحضرته لى فى

الصباح وارتشفتُ رشفةً من الشاي الذى كان ما زال ساخنًا وعلى عجل ..

أخـذتُ طريقى إلـى أسفل. طرقتُ بـاب حورية حتى أعطيها المفتاح .. ولكنها لم تفتح، أخذتُ طريقى إلى محطه القطار ومنه إلى المنصورة التى بدأت فيها رحلة عذابٍ استمرتْ شهرًا كاملا .

obeikan.com

(١١)

حين عدتُ مِن المنصورة توجهتُ مباشرةً إلى مقر عملى، سلَّمتُ الأوراقَ ووقَّعتُ بالحضور، وكانت هناك أوراقٌ أخرى علىَّ أن أُنهيَها مِن أجل البَدَل وما إلى ذلك، وأسرعتُ لشراء صينية البسبوسة المحشوة، وأخذتُ طريقى إلى الحوش الذى أسكنُ فيه وقد استقر قرارى على رأيٍ واحد، لابد أن أتزوج حورية، ليس كما يظن البعضُ لإصلاحِ ما حدث بينى وبينها قبل سفرى فهذا لم يكن غلطةً قد أُصلِحها بالزواج .. هذا كان الزواجَ نفسَه، وحورية بالنسبة لى هى الحياة .. هى الروحُ التى أتنفَّسُها .. هى نسمةُ الهواءِ الداخلِ والخارج منِّى. بدونها لا حياة، وهل بعد هذا يسألنى أحدُهم لِمَ تزوجتها؟ إنها الأنثى التى يبحث عنها الذَّكَرُ طيلةَ حياته وقد لا يجدها، إنها النصفُ الآخر الذى قُدِّرَ لى أن أراه فى هذه الأيام وفى

هذا المكان، أليست هى مَن قال « لكل واحدٍ مِن اسمِه نصيب»؟ وأنا اسمى سعيد .. فهل أطمعُ فى سعادةٍ أكبرَ من هذه؟ هذه المرأةُ التى أصبحت بالنسبة لى هى كل شىء، هى الحبيبةُ والصديقةُ والزوجةُ والأُمُّ والأختُ والابنةُ والعشيقة، هى التى تمثلتْ لى فيها كل معانى النساء، جمعتْ كلَّ النساء فى واحدة، فكانت حورية .. حورية التى سوف أستعيدُ أحضانَها الدافئةَ، وسوف أعوّض عنها كل هذه السنوات من الانتظار، وحين دخلتُ إلى الحوش طرقتُ البابَ فتحتْ لى امرأةٌ لا أعرفها .. ترددتُ .. هل أسألُها عن حورية؟ ولكنها بادرتنى بالسؤال:

- انت عاوز مين؟

حاولتُ قدْرَ جهدى أن أُخرِجَ نفسى مِن هذا الارتباك وسألتُها .. أُم آمال؟ نظرتْ إلىَّ السيدةُ بشىءٍ من الريبة والشك .. وسألتْ .. انت مين؟!! فأشرتُ إلى الغرفة التى أسكنُ بها وقلتُ لها إننى أسكنُ هنا، أجابتنى عن السؤال الأول:

- أُم آمال تعيش انت!

لم أدرِ ماذا حدث .. شعرتُ بالأرضِ تدور وتدور وأنا أسقطُ فى هوةٍ

بئرٍ سحيق، وهناك أيادٍ كثيرةٌ تحاول أن تنتشلَنى قبل أن أسقط، ولكننى فى النهاية سقطتُ فى هذه الهوةِ العميقة .

حين فتحتُ عيني وجدتُ نفسى فى الغرفةِ على سريرى وحولى بعضٌ مِن الذين أعرفهم ومِن الذين لا أعرفهم، منهم السيدةُ التى فتحتْ لى بابَ حورية. كان عبد البر واقفًا وكذلك زوجته وكتكوت، والمرأة البدينة التى تسكن إلى جوارى وزوجها المذعور بفانلته الداخلية، والجميع ينظرون إلىَّ.

تناوَبَ الحاضرون الحمدَ على أننى قمتُ مِن هذه السقطةِ، ولامتِ المرأةُ نفسَها لأنها هى التى أخبرتنى الخبرَ المشؤوم، وبدأت القصصُ تنهال مِن الواقفين حتى استطعتُ أن أكوِّنَ الصورةَ الحقيقية .. الصورةَ التى لا يعلمها إلا أنا، فحين استسلمتْ حورية لى استيقظتْ فى الصباح وشعرتْ بالخجل، غادرتِ الغرفةَ مسرعةً على أملِ أن ترانى بعد عودتى بعد خمسةَ عشرَ يومًا، طوالَ هذه الفترةِ كانت تعيش حياتَها بصورةٍ طبيعية كما وصفها لى الموجودون، لكنها بعد خمسةَ عشرَ يومًا من سفرى المشؤوم بدأت تَظهر عليها أعراضُ الضيق وتغلِق الغرفةَ لفتراتٍ طويلة ولا تحاول التحدثَ مع أحد.. حتى أن المرأةَ البدينةَ سَمِعَتْهَا يومًا تحدِّث

نفسَها قائلةً :

- وأنا كده أبقى فرقت عنهم إيه؟

وكررتْ هذه الجملةَ عدةَ مراتٍ بصوتٍ عال، وحينما حاولتِ البدينةُ أن تفهمَ منها ماذا تقصد، غادَرَتْهَا دون أن تجيب، غير أنهم بعد ذلك بقليل سمعوا أصواتَ صراخٍ مِن غُرفة «أُم آمال» اندفَعَ الجميعُ وكسروا البابَ فوجدوها قد أشعلتِ النيرانَ فى نفسِها، حاولوا إنقاذَها لكنها قبل أن تصِل إلى المستشفى كانت قد لفظتْ أنفاسَها ..

وتذكرتُ كلماتِ سليمان:

«أُم آمال سِت واحدانيه آه .. بس الشرف عندها .. حاجه كبيره قوى .. وبعدين ما دام قالت لك خليك راجل .. يبقى انت حاجه كبيره عندها..»

هنا فقط سمحتُ لدموعى بأن تتساقط .. تذرف.. شعرتُ بأننى السببُ فى قيامِها بهذه الفعلة. أوضَحَ لى سليمان الريس ما خَفِي عن الجميع، لقد انتظرتنى خمسةَ عشرَ يومًا كما قلتُ، لكنها بعد ذلك حسبتْ أننى لن أعود، وأنها أصبحتْ مثل الأُخرَيات، ولهذا

وضعتْ نهايةً لحياتِها بيدِها .. وأنا .. أنا الذى أشعلتُ هذه النيرانَ بداخلِها، وأنا الذى أشعلتُ النيرانَ فيها، وقفتُ عازمًا على تركِ مقابرِ الإمام بكل ما تحمِلُه مِن ذكريات، إنها فترةٌ لا تتجاوزُ العامَ، ولكن ما شهدته خلالَها يتجاوزُ ما يمكن أن يراه الآخرون فى أعوامٍ كثيرة .

obeikan.com

obeikan.com

(١٢)

فى طريقِ العودةِ لم أحادِثْ أحدًا .. ظللتُ طوالَ الطريقِ صامتًا، وكان هذا هو آخِر عهدي «بقهوة كتكوت»، والطريق الترابي إلى حوش السمان، كان هذا هو آخِر أيامي فى الإمام .

***ملحوظة :**

أرجو ألا يقرأَ أحدٌ غيرك ما دونتُه فى هذه الأجندة

obeikan.com

obeikan.com

(١٣)

بعد أن انتهيت من القراءةِ ووصلت إلى الملحوظة .. وجدتُ نفسي أربِطُ الأجندةَ بنفسِ الطريقةِ التي كانت عليها .. عازمًا على ألا أَدَعَ أحدًا آخَرَ يقرؤها.

عاطف عبد الرحمن

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com